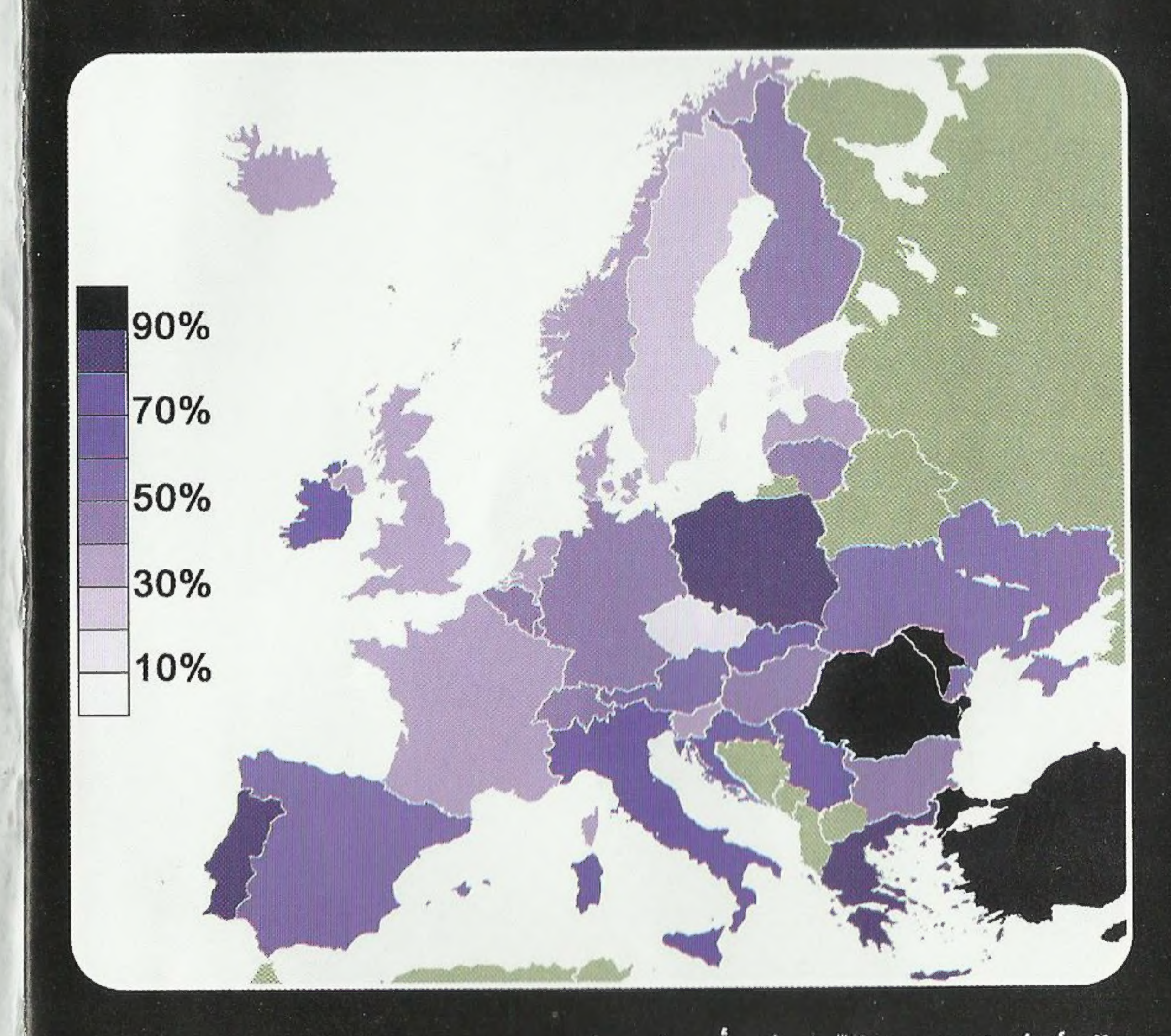
وهم الإلحاد

أ.د. عمرو شريف

تقديم أ. د. محمد عمارة

الأزهر



المؤمنون بوجود الله.. في أوربا

المصدر: ويكيميديا



أ.د. عمرو شريف

تقديم

أ. د. محمد عمارة

هدية المحرم ١٤٣٥ هـ



تمهيد عن

الإلحاد بين الغرب والإسلام

بقلم: أ.د. محمد عمارة

الإلحاد: ظاهرة غربية، استقطبت قطاعًا من الفلاسفة والمفكرين الغربيين، وشرائح من الجماهير، منذ الجاهلية اليونانية وحتى العصر الذى نعيش فيه.. ويعود دارسو الفلسفة القديمة بظاهرة الإلحاد إلى الفيلسوف اليونانى (ديموقريطس الأبديري) (حوالى ٤٦٠- ٣٧٠ ق.م) الذى أرجع تولد العوالم وموتها إلى الضرورة، دون أن يخلقها إله.. ولقد وصف (كارل ماركس) (١٨١٨- ١٨٨٣م) ديموقريطس بأنه: (أول عقل موسوعى بين اليونانيين).. وقال عنه (لينين) (١٨٧٠- ١٩٢٤م): (إنه ألمع دعاة المادية فى العالم القديم) (١)

وعبر تطور الحضارة الغربية أصبح الإلحاد مذهبا فلسفيا، وبلغ ذروته فى الماركسية- بماديتها الجدلية والتاريخية التى هيمنت على أحزاب وحكومات ومجتمعات مثلت أكبر ظواهر الإلحاد فى التاريخ الإنساني، حتى جاء سقوطها المدوى أوائل العقد الأخير من القرن العشرين.

ورغم سقوط الماركسية، فلقد ظلت ظاهرة الإلحاد ملحوظة، بل ومتزايدة فى المجتمعات الغربية، بسبب سيادة الفلسفة الوضعية المادية، وبسبب العلمانية التى نزعت القداسة عن

---

(١) (الموسوعة الفلسفية) وضع لجنة من العلماء السوفياتيين بإشراف: م. روزنتال. و. ب. يودين، ترجمة سمير كرم، طبعة دار الطليعة، بيروت سنة ١٩٧٤ م.

المقدسات.. فالذين يؤمنون بوجود إله لهذا الكون- في أوروبا- حتى وإن لم يعبدوه- لا تتجاوز نسبتهم ١٤٪ من الأوروبيين! .. وفي انجلترا - حيث الملكة هي رئيسة الكنيسة- قفزت نسبة الملحدين المعلنين إلى ٢٥٪ من السكان!- بعد أن كانت ١٤,٨٪ منذ سنوات! (٢).

وعلى العكس من ذلك لم يكن الإلحاد ظاهرة في تاريخ الحضارة الإسلامية، بل لا نلمح له وجودا حقيقيا.. قد نجد شخصيات قلقة إزاء الإيمان الديني.. وأغلب هذا القلق إنما كان بمعايير المذاهب التي تقف عند ظواهر النصوص الدينية، والتي تنفر من التأويل.. أما إذا عرض هذا القلق على مذاهب التأويل التي اتسعت آفاقها في الفلسفة الإسلامية، وعلى مذاهب الإسلاميين التي جعلت (الشك المنهجي) السبيل إلى اليقين فلن نجد لهذا القلق ولا لهذه الشكوك أثرا يربط بينها وبين حقيقة الإلحاد، الذي لا يؤمن أصحابه إلا بالمادة مصدرا للمعرفة، ولا يعتمدون سوى الحواس سبيلا لتحصيل هذه المعرفة (٣)

لقد كان العقل اليوناني عقلا تأمليا نظريا، ونادرا ما اعتمد التجربة لاختبار صدق الأقيسة والنظريات؛ لأن التجربة- عند اليونان- كانت محتقرة، باعتبارها عملا يدويا لا يحترفه سوى العبيد!

وجاء العقل المسيحي الغربي عقلا خرافيا، يحصر كل المعارف والعلوم في اللاهوت، ويخاصم التجربة؛ لأن العالم- موضوع التجارب- دنس، إذ مملكة- المسيح ليست في هذا العالم الدنس، وإنما هي في السماء!.. ولذلك أحالت الكنيسة كل العلماء الذين اشتغلوا بالتجارب في هذا العالم إلى محاكم التفتيش! (٤)

وعلى العكس من ذلك التاريخ الغربي، الذي ضيّق على العقل وعلى العلم، فوسع الأبواب التي تفضي إلى الزندقة والإلحاد كان تاريخ الإسلام وحضارته مع العقل والعقلانية والمعارف والعلوم والمنهج التجريبي والعلوم التجريبية.. لقد جاءت معجزة الإسلام عقلية، تستنفر العقل كي يتعقل ويتدبر ويتفكر ويتذكر.. بل لينظر ويشك كي يصل إلى اليقين.. على حين كانت معجزات النبوات السابقة مادية، تدهش العقل فتشله عن التفكير!

وفوق شيوع الاستدلال العقلي والمنطقي، في القرآن، على الحقائق والفلسفات جاء الحديث عن العقل.. كفعل للضبط العقلي- في تسع وأربعين آية.. فإذا أضيفت إليها الآيات التي تتحدث- باللفظ- عن أدوات التعقل- القلب.. واللب.. والنهي... والفقه.. والتدبر.. والاعتبار.. والحكمة.. إلخ.. إلخ.. قاربت الثلثمائة آية في القرآن الكريم.

ومع شهرة المقابلة- بل والتناقض- بين العقل والنقل في التراث الغربي، فإن المقابل للعقل- في تراثنا العربي والإسلامي- هو الجنون!

وعلى حين كان الضيق الغربي بساحة العقل في عوالم الأفكار، وبالفروض وبالشكوك المنهجية قيودا وأغلالا دفعت قطاعات من العقل الفلسفي الغربي إلى الزندقة والإلحاد.. كانت الأبواب الإسلامية مشرعة أمام العقل كي ينظر في الخلق والواقع

(٢) (الأهرام) عدد ٢٠/٥/٢٠١٣م.

(٣) د. محمد عمارة (قراءة النص الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي) طبعة دار السلام، القاهرة سنة ١٤٣٣ هـ، ٢٠١٢ م.

(٤) د. محمد عمارة (الإسلام في عيون غربية) ص ٣٢٩ - ٣٥٨، طبعة دار الشروق، القاهرة سنة ١٤٢٥ هـ. ٢٠٠٥م.

والمسيرة والمصير دونما قيود.. حتى قال بعض علماء الإسلام: (إن أول شرط للمعرفة هو الشك).. وقال آخرون: (إن الواجب الأول على الإنسان هو الشك).. وأعلن البعض: (إن من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر ففى العمى والضلال)!

ولقد تحول هذا الشك المنهجي- فى التراث الإسلامي- إلى (علم) من العلوم التى يجب تعلمها، لأنه هو الطريق إلى تحصيل اليقين الذى تطمئن به القلوب.. وعبّر الجاحظ (١٦٣-٢٥٥هـ-٧٨٠- ٨٦٩م) عن ذلك فقال لقارئه:

(فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له.. وتعلّم الشك فى المشكوك فيه تعلما، فلو لم يكن فى ذلك إلا تعرّف التوقف، ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يُحتاج إليه، فلم يكن يقين قط حتى كان قبله شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك) (٥)

وبهذا الأفق الإسلامى المتميز- بل والفريد- تم استيعاب العقلانية بكل تجلياتها فى أحضان الإيمان الإسلامي، فانعدمت- أو كادت- القيود والضرورات الملجئة إلى الإلحاد.

وعلى حين أغلق العقل المسيحى الغربى أبواب المنهج التجريبي، وحرم على العلماء الاشتغال بالعلوم التجريبية التى اعتبرها اشتغالا بالدنس- جاءت الرؤية الإسلامية للكون، لتقرر أن العالم ليس دنسا، وإنما هو خلق الله، يسبح بحمده حتى وإن لم نفقه نحن لغة تسبيحه، ومن ثم فهو- بمكوناته وطاقاته

(٥) الجاحظ (كتاب الحيوان) ج ٦، ص ٣٥، ٣٧ تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون، طبعة القاهرة - الثانية. (والحديث هنا عن الشك المنهجي) وليس عن (الشك العبثي) الذى يناقض الفطرة ويشكك فى البدهيات.

وإمكاناته- مسخر للإنسان فى القيام برسالة العمران.. ولذلك فإن فقه هذا العالم، واكتشاف أسراره- بالتجريب والعلوم التجريبية- هو عبادة، تجعل علماءها الأكثر خشية لله، حتى لقد جاء الحديث القرآنى عن العلماء الذين هم الأكثر خشية لله فى سياق الحديث عن العلوم الكونية الطبيعية- وليس العلوم النظرية- فى سياق الحديث عن علوم: الماء.. والسماء.. والنبات.. والجيولوجيا.. والإنسان.. والحيوان.. والحشرات.. إلخ.. إلخ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾

(فاطر: ٢٧، ٢٨).

فبينما كان التجريب فى الطبيعة وعلومها- فى الغرب المسيحي- هرطقة يفر أصحابها من محاكم التفتيش ومحارقها إلى الإلحاد.. كان التجريب- فى الحضارة الإسلامية- عبادة يتقرب بها أصحابها إلى الله.. كانت (علما لأشراف أهل الحكمة، يتفرغ للجدال فيه الشيوخ الجلّة والكهول العلية، حتى ليختارون النظر فيه على التسبيح والتهليل، وقراءة القرآن، وطول الانتصاب فى الصلاة، وحتى يزعم أهله أنه فوق الحج والجهاد، وفوق كل بر واجتهاد)! - على حد تعبير الجاحظ (٦)

وعلى حين كان الوقوف بمصادر المعرفة- عند الملاحدة-

(٦) المصدر السابق، ج١، ص ٢١٦، ٢١٧.

محصورا فى المادة.. وبسبل المعرفة عند الحواس.. فلقد استوعبت نظرية المعرفة الإسلامية- فى مصادر المعرفة- عالم الغيب وعالم الشهادة.. كتاب الله المنظور وآياته المبثوثة فى الأنفس والآفاق، وكذلك كتابه المسطور ونبأ السماء العظيم.. كما استوعبت- فى سبل المعرفة وأدواتها- الهدايات الأربع: العقل.. والنقل.. والتجربة.. والوجدان.. فالعقل يضيف ويصحح للحواس.. والنقل يضيف أنباء عالم الغيب التى لا يستقل العقل بإدراك كنهها.. والوجدان يضيف إلى حسابات العقل ما يرطبها، كما تضبط حسابات العقول خطرات القلوب وإلهاماتها..

وهكذا تستوعب نظرية المعرفة الإسلامية كل مستويات النظر.. كما يستوعب الخطاب القرآنى كل مستويات المخاطبين:

١- أهل الحكمة والبرهان.

٢- وأهل الموعظة من جمهور المخاطبين وعامتهم.

٣- وأهل الجدل الذين يقفون بين الخاصة وبين الجمهور..

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

(النحل: ١٢٥)

فلم تقم- فى هذا الخطاب الإسلامي- التناقضات بين مستويات الخطاب، ولا بين مستويات المخاطبين (٧)

(٧) د. محمد عمارة (مقام العقل فى الإسلام)، طبعة نهضة مصر، القاهرة، سنة ٢٠٠٨م.

ولهذه الفروق الجوهرية بين الإسلام وبين فلسفة اليونان ولاهوت المسيحية الغربية.. ومن ثم بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة الغربية اختلف أمر الإلحاد بينهما.. فكان الإلحاد وكانت الفلسفة المادية- فى التاريخ الغربي- ظاهرة حاضرة وملحوظة- إلى جانب الفلسفة الإلهية والمثالية دائما وأبدا.. بينما خلا تاريخ الإسلام الفلسفى والفكرى والحضارى من ظاهرة الإلحاد، ولم يعرف سوى بعض الشخصيات القلقة، والشكوك التى ضاق بها الذين خاصموا التأويل ووقفوا عند ظواهر النصوص التى جاءت فى المتشابهات، فلم يتم توظيفها- بالشك المنهجي- لتكون سبيلا لليقين الذى تطمئن به القلوب.

***

وإذا كان التاريخ الإسلامى قد شهد بروز قرن الزندقة عن طريق الشعوبية الفارسية، التى أرادت الانتقام من الإسلام الذى طوى صفحة كسرويتها وذلك بإشاعة الشكوك التى لبست- فى بعض الأحيان- أثواب الخلاعة والمجون.. وهى الموجة التى كسرت شوكتها عقلانية الإسلام التى رفع رايتها أهل العدل والتوحيد.. فإن الغزو الفكرى الغربي، الذى جاء إلى بلادنا- فى العصر الحديث- بركاب الغزوة الغربية الحديثة، قد فتح العديد من الثغرات الفكرية والدينية للانحراف عن منهاج الفكر والحياة الإسلامي.

فلقد كانت الفلسفة المادية الوضعية أداة غربية للانحراف بالعقل المسلم عن العقلانية الإسلامية المؤمنة.. أرادت الوقوف بالمسلم عند العقل والحواس، دون الشرع والشريعة.. ولقد تصدى العقل المسلم لهذا الانحراف- على لسان رفاعة الطهطاوى (١٢١٦-١٢٩٠هـ ١٨٠١-١٨٧٣م) الذى قال عن هذه الفلسفة الوضعية المادية- التى بلورتها النهضة الأوروبية-:

(ولهم فى الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب

السماوية) والذى ميز بين ما لدى الغرب من علوم طبيعية للتمدن والمدنية- عمران الواقع- وبين هذه الفلسفة المادية التى أشاعت الإلحاد والكفر بالدين، وصاغ ذلك شعرا قال فيه:

أيوجد مثل باريس ديار شموس العلم فيها لا تغيب

وليل الكفر ليس له صباح أما هذا، وحقكم، عجيب!

كما نبه على تميز العقلانية الإسلامية عن العقلانية الغربية.. فعقلانيتنا تتزاوج مع الشرع، بينما يقفون هم عند العقل المجرد عن الشرع.. فقال:

(إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع، وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.. فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسني.. فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة) (٨)

وجاءت مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامية، التى هندس مشروعها الفكرى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ، ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) لتنتقد الطابع المادى الإلحادى للنموذج الحضارى الغربي، ولتتحدث عن هذه المدنية الغربية باعتبارها: (مدنية الملك والسلطان) مدنية الذهب والفضة، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق، وحاكمها الأعلى هو (الجنيه) عند قوم، و(الليرا) عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل فى شيء من ذلك.. لقد اكتشف أهلها كثيرًا مما يفيد فى راحة الإنسان وتعزيز نعمته، ثم عجزوا عن أن يكتشفوا طبيعة

(٨) الطهطاوى (الأعمال الكاملة) ج ٢، ص ١٦٠، ٤٧٧، ٣٨٦، ٣٨٧، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، طبعة بيروت، سنة ١٩٧٣م.

الإنسان، ويعرضوها على الإنسان حتى يعرفها فيعود إليها.. لقد عجزوا عن جلاء الصدأ الذى غشى الفطرة الإنسانية، وعن صقل النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحي.. لقد عجزوا - مع قوة العلم - عن كشف الطبيعة الإنسانية التى عرّفها الدين إلى أربابها فى كل زمان) (٩).

كما لفت النظر إلى تميز الإسلام بالوسطية الجامعة التى أنقذت أمته وحضارته مما وقع فيه الغرب من المادية، (فلقد ظهر الإسلام) لا روحيًا مجردًا، ولا جسدانيًا جامدًا، بل إنسانيًا وسطا بين ذلك، آخذًا من كلا القبيلين بنصيب، فتوافر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره، ولذلك سمى نفسه دين الفطرة، وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدوه المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية.. لقد جاء الإسلام كمالاً للشخص، وألفة للبيت، ونظامًا للملك، امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه (١٠).

وضمن الغزو الفكرى الغربى وفد التنصير إلى بلادنا فى ركاب الغزوة الغربية الحديثة.. جاء لاختراق الإسلام، طامعًا فى تنصير كل المسلمين، وطى صفحة الإسلام من الوجود!.. ولقد توسل المنصرون إلى ذلك بوسائل كثيرة منها - عند العجز عن تنصير المسلم - تشكيكه فى إسلامه، ودفعه إلى الزندقة والإلحاد.. ولقد حاكوا فى تعصبهم ضد الإسلام، وتفضيلهم إلحاد المسلم على إيمانه بالدين الذى يصدق بكل الكتب وبجميع النبوات والرسالات، حاكوا يهود المدينة المنورة على عهد النبوة، الذين شهدوا للوثنية القرشية ضد التوحيد الإسلامي، فقالوا لمشركى

(٩) محمد عبده (الأعمال الكاملة) ج ٣، ص ٢٠٥، ٤٩٥، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.
(١٠) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٨٧، ٢٢٥، ٢٦٦.

مكة:

- (إن دينكم خير من دين محمد، وأنتم أولى بالحق منه)!

والذين أشار إليهم القرآن الكريم فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾

(النساء: ٥١)

هكذا وقف المنصرون ليعلنوا بلسان كبيرهم (صموئيل زويمر) (١٨٦٧ - ١٩٥٢ م): أن تشكيك المسلم في دينه هو الموقف الأولى إذا لم يكن الانتقال به من الإسلام إلى النصرانية![11]

وفي بداية ثلاثينيات القرن العشرين نجح المنصرون في تنصير أحد أبناء الأسر المصرية بمدينة الإسكندرية، وهربوا به إلى الخارج، فاهتز ضمير الأمة لهذا الحدث الجلل والغريب، حتى أنه قد أحدث تحولاً في الحياة الفكرية قاد عددًا من رموز الفكر العلماني إلى الكتابة في الإسلاميات.. وكان في مقدمة هؤلاء الكتاب الكبار الدكتور محمد حسين هيكل باشا (١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ، ١٨٨٨ - ١٩٥٦م) والأستاذ عباس محمود العقاد (١٣٠٦ - ١٣٨٣ هـ، ١٨٨٩ - ١٩٦٤ م).

وفي عام ١٩٣٧ م كتب إسماعيل أدهم (١٣٢٩ - ١٣٥٩ هـ، ١٩١١ - ١٩٤٠ م) رسالة صغيرة في تحبيذ الإلحاد عنوانها: (لماذا أنا ملحد).. وكانت ثقافة الرجل ثمرة للفكر المادي

(11) د. محمد عمارة (الغارة الجديدة على الإسلام)، طبعة نهضة مصر، القاهرة سنة ٢٠٠٦ م.

الماركسي الذي درسه وعايشه عدة سنوات في الإتحاد السوفييتي.. ولقد قامت الردود الإسلامية - العقلانية المستنيرة - بوأد هذه النزعة الإلحادية في مهدها.. ثم طويت صفحتها بانتحار صاحبها غرقًا عند شاطئ الإسكندرية سنة ١٩٤٠ م.

ومضت الحياة الفكرية بعالم الإسلام دون أن يعرف الإلحاد (كظاهرة)، وإن عرف - كما أشرنا من قبل - بعض الشخصيات القلقة، وبعض الغلو العلماني الذي يفترى الكذب على شريعة الإسلام والتاريخ الفكري والحضاري للمسلمين.. كما عرف عالم الإسلام إبان القرن العشرين هوامش للفكر المادي المركسي، تمثلت في تنظيمات شيوعية لم تكن الدعوة إلى الإلحاد ملحوظة في أدبياتها، مراعاة منها للإيمان الديني الذي تدين به الجماهير التي تتوجه إليها هذه الأدبيات.

ولقد ظل الحال كذلك حتى جاءت ثورة الاتصالات المعاصرة التي أزالت الحواجز النسبية بين الثقافات والحضارات، والتي جعلت فيها شبكة المعلومات العالمية من الكون الثقافي والعولمة الفكرية صفحة مفتوحة أمام جميع الناس في كل القارات والأقطار والحضارات.. فرأينا - ولأول مرة في تاريخنا - تسلل الإلحاد الغربي إلى نفر من الشباب المسلم، الذين لم تقو مداركهم في العلم القومي، ولم تتحصن عقولهم بالوعي الفكري الإسلامي، ولم تتهذب وجداناتهم بالتربية الإسلامية التي تؤسس لطمأنينة القلوب.. فعلى مواقع (النت) وفي غرف الدردشة، يتساقط نفر من هؤلاء الشباب في مستنقع الإلحاد، تساقط الغرقى الذين اجتذبتهم أمواج المحيطات، دون أن تكون لهم الدراية - فضلاً عن المهارة - في التعامل مع أمواج المحيطات وعواصفها وتقلباتها.. ولقد وضح ذلك أكثر ما وضح في المجتمعات الإسلامية التي يسود فيها خطاب ديني غريب عن العصر، أو

غارق فى الجمود والتقليد..

لذلـك.. وقيامًـا بالواجـب العلمـى للعقل الإسـلامى فى أداء فرائضه الثلاث:

١- تبليغ الدعوة بالحكمة والبرهان والموعظة الحسنة.

٢- وإقامة الحجة بالحوار والمجادلة بالتى هى أحسن.

٣- وإزالة الشبهات التى يقذف بها دعاة الإلحاد عقول الشباب.

قيامًا بهذه الفرائض تطلعت إلى ساحة الفكر الإسلامى - وخاصة فى مصر - بلد الأزهر الشريف، فكانت الصدمة عندما لم أجد أحداً بين علماء الإسلام قد أولى هذا الحقل، حقل الرد على الماديين ومحاورة الملحدين.. ما يستحق من التخصص والاهتمام، لكن ولحسن الحظ وجدت هذا العالم الفاضل، أستاذ الطب الدكتور عمرو شريف، الذى استوعب تاريخ الإلحاد ودعاوى فلاسـفته قديمًـا وحديثًا فى الغرب والشرق، والذى أسـهم بجهود فكرية مشكورة ومتميزة وممتازة فى هذا الميدان، والذى قام بمحاورة عدد من مشاهير الملحدين العرب، فكسر شوكتهم بالعقلانية العلمية والمنطق الإيماني، فطلبت منه أن يقدم لقراء مجلة الأزهر، التى كانت على مر تاريخها حارسـة لعقائد الإسـلام وشريعته وحضارة أمته.. والتى سـبق لها وأسهمت فى الرد على كتاب إسـماعيل أدهم سـنة ١٩٣٧م [١٢]، طلبت من الدكتور عمرو شـريف أن يقدم للشـباب المسـلم الحقائق التـى تعرى أوهام الإلحاد وأكاذيب الملحدين، فكان هذا الكتاب الذى أقدم بين يديه.

لقد عشـت معه، وعايشـت أفكاره، وتأملت منطقه وحججه، فوجدتـه ثمرة ناضجة لعلم غزير، وتجارب غنية، وإخلاص يتميز

(١٢) لقـد نشرت مجلة الأزهر - يومئذ - دراسـة علمية ممتـازة لرئيس تحريرها العلامـة محمد فريد وجدي، عنوانها: (لماذا هو ملحد)؟.. سـنعمل على إعادة نشرها ضمن الجهود التى نبذلها لمحاربة الإلحاد - إن شاء الله..

بـه أصحاب الرسـالات، وغيـرة على الإنسـانية أن تضـل طريق الهداية فتقع فى مستنقع الإلحاد الذى يقطع طريق الأمل أمام أهله فيغرقهم فى بحار اليأس والقنوط.

إنـه كتـاب علمى دقيـق وعميق، ومـع ذلك فهـو واضح، بل وممتع، وجذاب.. ففيه مستويات من الحقائق العلمية، وطبقات من البراهين المنطقية، تجعل لكل قارئ من القراء، الذين تتفاوت مداركهـم العلميـة ومسـتوياتهم الفكريـة، نصيبًـا وحظا يدعم الإيمان ويبدد شبهات الإلحاد.

إن الإلحـاد يفتـرس طمأنينة النفوس البشـرية فـى مجتمعات غربية تتمتع بأعلى مستويات المعيشـة والإشـباع للشـهوات، فتشهد - مع ذلك - أعلى مستويات القلق والانتحار!.

بينمـا يضمـن الإيمـان الدينـى طمأنينـة النفـوس فـى أكثر المجتمعات الإسلامية فقرًا، فلا تجد فيها أثرًا لانتحار الملحدين!!

لذلك كان تبديد أوهام الإلحاد والملحدين سبيلاً لتحقيق الطمأنينة والسعادة فى هذه الحياة الدنيا.. فضلاً عن النعيم فى يوم الدين.

وتلك هى رسـالة هذا الكتاب الذى نقدمه إلى القراء، سـائلين المولـى - عز وجل - أن ينفع به، وأن يجزى كاتبه خير الجزاء.. إنه سبحانه وتعالى خير مسئول وأكرم مجيب.

***

تقديم:

الإلحاد فى القرآن الكريم

يرى الكثير من المفسـرين أن القـرآن الكريم لم يتناول قضية الوجود الإلهى، باعتبار أنها فطرة فى النفس البشرية، لذلك اتجه مباشرة إلى الاستدلال على وحدانية الله تعالى، ونحن نتبنى الرأى الآخر القائل بأن القرآن الكريم - باعتباره خاتم الكتب السماوية - كان طبيعيًـا أن يبدأ بإثبات قضية الوجود الإلهى، سـواء بتبنيه الفطـرة البشـرية، أو بالمنطق العقلى، أو بالحـث على النظر فى الآفاق وفى الأنفس، ثم يعرج بعد ذلك إلى قضية التوحيد، ثم إلى تناول أشكال الطمس والانحراف المختلفة التى يمكن أن تصيب الفطرة الإنسانية وسلامة العقل، ويطلق القرآن الكريم على هؤلاء اسم «الكافرون»؛ حيث كَفَرَ تعنى غطَّى:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

(الكافرون: ١ : ٦).

وهؤلاء الكافرون قد يكونون:

«مدعون» أو «منكرون» أو «مشركون» أو «ضالون»

١ - أمـا المدعون، فهـم «مدعو الألوهية»، وقـد تناول القرآن الكريـم هـذا النمط مـن الانحراف مـن خلال القصـص القرآنى، فيحدثنا عـن نمرود إبراهيم وفرعون موسـى، وبعد نزول القرآن قابلنـا هذا الادعـاء عند غلاة الشيعة الذين ألَّهـوا الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه، ثم عند البهائيين، وهذا الادعاء هو أشـد أشكال الانحراف عن الفطرة السوية.

وهؤلاء تقابلهـم فى العصر الحديث المدارس الفكرية المادية التـى جعلهـا المنكـرون لله تعالـى آلهـة يتبعونهـا، كالداروينية والماركسية.

ويمتد الادعاء ليشـمل «ادعاء النبـوة»، وكان هذا النمط أكثر شيوعًا بين العرب من ادعاء الألوهية، ويحدثنا القرآن الكريم عن هذين النمطين بقوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾

(الأنعام: ٩٣).

٢ - يطلـق القرآن الكريم على المنكريـن لوجود الله عز وجل اسم «الدهرية»، وقال فيهم:

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

(الجاثية: ٢٤).

وجـاء فـى «موسـوعة المفاهيـم» للمجلـس الأعلى للشـئون الإسلامية أن الدهرية مذهب كل من اعتقد فى قِدَم الزمان والمادة والكون، وأنكر الألوهية والخَلق والعناية والبعث والحساب، كما يـرون أن الموجب للحيـاة والموت هى طبائع الأشياء وحركات الأفلاك.

وهـؤلاء الدهرية المنكـرون للإلوهية هم أقـرب الكافرين من الملاحـدة المعاصرين، كما يخبرنا القرآن الكريم عما سـيدعيه بعض الدهريين بعد أربعة عشـر قرنا عن خلق الكون والإنسان من عدم، فيقول الحق عز وجل:

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾

(الطور: ٣٥).

سبحان الله ، ﴿ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ هنا تعنى : من غير مادة ومن غير سبب أول ، كما تعنى ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ أن الشىء يخلق ذاته ، وقد ادعى الملاحدة المعاصرون وقوع هاتين الفرضيتين المستحيلتين ! .

٣- يحدثنا القرآن الكريم عن طائفة تقر بالإله الخالق للكون ، والذى اعتزله بعد أن وضع فيه القوانين التى تسيره ، ومن ثم ينكر هؤلاء « القيومية » ، أى ينكرون متابعة الإله الخالق للكون بالحفظ والتدبير والرزق ، وفى هؤلاء يقول الحق تعالى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

(العنكبوت : ٦١)

٤- يخبرنا القرآن الكريم أن من الكافرين من يقر بالقيومية :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

(العنكبوت : ٦٣)

لكنه ينكر أن يكون الإله قد تواصل مع البشر عن طريق الأنبياء والرسل ، أى ينكرون الديانات ، وهذه الطائفة (والتى قبلها) تقابل « الربوبيين » المعاصرين .

ويهدف الربوبيون من إنكار الديانات السماوية – فى المقام الأول – إلى إنكار البعث والثواب والعقاب ، فعند ذلك لن يكون هناك مبرر للعبادات وللالتزام بأوامر الله عز وجل ونواهيه ، وبذلك يُفرغوا الألوهية من كل معنى وقيمة :

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

(التغابن : ٧)

٥- يأتى بعد « المدعين » و « المنكرين » « المشركون » ، والمشرك هو الذى يؤمن بوجود الله ، لكنه يعبد معه غيره من أصنام وأوثان ويقدس الأولياء ، بزعم أنهم يقربونه لله عز وجل :

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾

(الزمر : ٣)

ومن أشكال الشرك الأخرى التى يكشف القرآن الكريم فسادها أن ينقاد الإنسان لـ « هواه » ، فيكون كمن اتخذه شريكا لله تعالى :

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾

(الفرقان : ٤٣) .

٦- و « الضالون » آخر أنماط الكافرين ، وهم الذين ضلوا عن الحق بعد أن عرفوه ، وهؤلاء موجودون فى جميع الملل والديانات . ومن الضالين فى أمة المصطفى ﷺ ، غلاة التصوف الفلسفى القائلين بوحدة الوجود المطلقة وبالحلول والاتحاد ، ظنًا منهم أن فى ذلك كمال التوحيد .

٧- جاء لفظ « يلحد » فى القرآن الكريم على ثلاثة معان :

الأول:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(الأعراف : ١٨٠) .

وهذا هو الإلحاد فى أسماء الله تعالى، أى الميل والانحراف بها إلى الباطل، فينسبون إلى الله تعالى العدمية، أو الجبر، أو الحلول والاتحاد، أو ......

الثانى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ ﴾

(فصلت : ٤٠) .

وهو تحريف معنى آيات القرآن الكريم إلى غير مراد الله تعالى منها، فيفسرون مثلاً آيات طلاقة المشيئة الإلهية بأن الإنسان مُجْبَر مُسَيَّر.

والثالث:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

(النحل : ١٠٣) .

ويلحدون إليه بمعنى ينسبون إليه، والمقصود من الآية أن الكفار ينسبون تعليم محمد ﷺ إلى الكهان، وهؤلاء لسانهم أعجمى غير عربى.

سبحان الله، لم يَدَع القرآن الكريم نمطًا من أنماط الانحراف عن فطرة الألوهية التى ظهرت حتى يومنا هذا إلا واعترضه بالحجة والبرهان، وهذا هو الجدير بخاتم الكتب السماوية.

لماذا هذا الكتاب؟

يجئ كتابنا الذى بين يديك لطرح أنماط الانحراف عن فطرة الألوهية والتدين، والتى تعارفنا عليها باسم الإلحاد، والتى نرصدها بالتأمل العقلى فى المجتمعات المعاصرة، كما نقوم بإظهار ما فى هذه الانحرافات عن عَوَار وتهافت، والرد على ما يطرحه الملاحدة من حجج بالمنهج العلمى، كما نهدف بكتابنا إلى إثبات أن العلم المعاصر فى شتى فروعه (الفيزياء والكون والحياة وعلوم المخ والأعصاب والنفس)

قد قدم الأدلة القوية فى قضية الوجود الإلهى، حتى صارت هذه الأدلة بابًا واسعًا للاستدلال على عقيدة الألوهية والتوحيد، تمامًا كما نشأ علم الكلام منذ قرابة الألف عام.

لقد صرنا - بلا شك - نحيا فى زمان تحقق قول الحق تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(فصلت : ٥٣) .

د. عمرو شريف

الفصل الأول

نشأة الإلحاد المعاصر وسماته

لا شك أن الإلحاد المعاصر مُنتَج أوروبى فى المقام الأول، ومن هناك انتقل إلى بلادنا، لذلك من أجل أن نفهم المد الإلحادى الذى نعايشه ونتصدى له ينبغى أن ندرس نشأة الإلحاد المعاصر وأصوله.

حتى خمسمائة عام مضت، كان المصدر الرئيسى للمعرفة فى أوروبا هو الكتاب المقدس. كذلك تبنى رجال الكنيسة الكاثوليكية آراء أرسطو وبطليموس العلمية حول الكون والعلوم الطبيعية، وألحقوها بمفاهيمهم المقدسة.

انطلاقًا من هذه المصادر كَوَّن إنسان العصور الوسطى فى أوروبا صورة عن العالم، تتلخص فى أن الأرض تقف ثابتة فى مركز الكون وتدور حولها الشمس والقمر وبقية الكواكب، وقد خلق الإله العالم من عدم عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد، وحتى تتوسط حياة المسيح تاريخ العالم سيكون يوم القيامة عام ٤٠٠٤ ميلادية.

ويسير العالم طبقًا لخطة إلهية محكمة، فكل شىء فى الكون له هدف وغاية (وهذا ما يُعرف بالغائية)، وقد تَكَفَّل الإله بتحديد الخير والشر والقيم الأخلاقية (مما يعنى أن العالم نظام أخلاقى، وأن هذه الأمور ليست نسبية تبعًا لرغبات البشر)، وأخيرًا يقف رجال الكنيسة كواسطة بين الإله وبين الناس فى قبول التوبة والحصول على الغفران ودخول الجنة.

العلم يخرج من القمقم...

يؤرخ المؤرخون لنهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث بصدور كتاب «عن دوران الأجرام السماوية» للعالم الفلكى والرياضى البولندى كوبرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣م)، الذى أثبت بالحسابات الرياضية أن الأرض مجرد تابع يدور حول الشمس، وقد أكد عالم

الفلك الإيطالى الشهير جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢م) باستخدام التليسكوب ما تَوَصَّل إليه كوبرنيكوس رياضيًا، وقد تعرضا (مع غيرهما من العلماء) للاضطهاد والتعذيب من رجال الكنيسة بالفاتيكان باعتبارهما من السحرة والمشعوذين.

وقد بلغت الجهود العلمية ذروتها بفضل عبقرية عالم الفيزياء والرياضى البريطانى إسحق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧م) الذى أتم إرساء أسس العلم الحديث، لقد توصل نيوتن إلى قوانين الحركة الثلاثة الشهيرة وكذلك قانون الجاذبية، كما وصف بدقة من خلال هذه القوانين بنية المجموعة الشمسية، وهى نفس القوانين التى تصف سقوط التفاحة من الشجرة، كما تصف ما يحدث إذا تصادم قطاران.

لقد كان نيوتن مسيحيًا ورعًا، وكان أريسيًا يؤمن بنبوة المسيح، ولا شك إنه كان سيصاب بالهلع لو أدرك أن إنجازاته العلمية ستُقَوِّض أركان الدين فى الغرب.

الإلحاد يطل برأسه:

لكن، كيف تسببت هذه الاكتشافات (وغيرها كثير) فى الصراع الذى نشب بين العلم والدين فى أوروبا؟

لم يكن الصراع بين العلم والدين بسبب أن اكتشافات «معينة» للعلم تتعارض مع معتقدات «معينة» للدين، كذلك فإن المفاهيم التى كان على الكنيسة أن تتخلى عنها أمام طوفان العلم لم يكن منها ما هو أساسى للدين.

فأساسيات الدين تتلخص فى ثلاث نقاط، نُطلق عليها «النظرة الدينية للعالم»:

١- هناك إله خالق للكون.

٢- هناك خطة كونية وغرض كونى للخالق من الخلق (الغائية).

٣- العالم يمثل نظامًا أخلاقيًا يحدده الإله.

ومن المؤكد أنه منذ الثورة العلمية فى القرن السادس عشر، وحتى الآن، لم يظهر اكتشـاف علمى واحد يتعارض مع هذه الأساسيات التى لولاها لانهدم الدين.

فـإذا كانت الأرض هى مركز الكـون أو كانت تابعًا صغيرًا يدور فى فلك الشـمس فكلا الاحتمالين لا يمنع وجود إله خلق كل شـىء، كما أن كلتـا الحالتين لا تتعارضان مع وجود غائية من الخلق ومع اعتبار أن العالم نظام أخلاقي!!

ومـع ذلـك فإن الثورة العلميـة كان لها بالفعل أثـر مدمر للدين فى أوروبا، إذ أعقبها فى القرن الثامن عشـر أكبر موجة إلحادية فى التاريخ الحديث، حتى إن ملك انجلترا كان يشـكو أن أكثر من نصف أسـاقفة كنيسته ملاحدة!.

لماذا...؟

نؤكـد بيقين أن إنكار أساسـيات النظرة الدينية ونشـأة الإلحاد لم تكن مشكلة علمية على الإطلاق، بل هى مشكلة نفسية فلسفية ترجع لعدة أسباب، أهمها:

١- أدى مـا تعرض له العلماء من اضطهاد وتنكيل على أيدى رجال الكنيسة إلى تبنيهم موقفًا عدائيًا من الدين، انعكس على موقف العامة.

٢- ثبت أن قوانين الطبيعة قد شكلت الكون عبر مليارات السنين، كما طرحت الداروينية أن الإنسـان قد نشـأ تطورًا، فرأى الكثيرون فى ذلك أن ليس للإله علاقة مباشرة بالكون وبالإنسان، وإن وجدت علاقة فهى غير مباشرة وبعيدة جدًا.

٣- بعد أن توصل نيوتن لقوانينه سادت النظرة المادية، وصار يُنظر إلى النظام الشمسـى، بل وإلى جسـم الإنسـان، باعتبارهما كالسـاعة الزنبركيـة التى تُملأ ثم تُترك لتعمـل تلقائيًا دون الحاجة لإله، وبذلك تلاشت تمامًا النظرة الغائية التى تعنى أن لله غاية من الكون والإنسان.

٤- نجـح العلم فى التنبـؤ بالظواهر الطبيعية، فأصبح الإنسـان - مثلاً - يتحاشى الإبحار فى يوم محدد تفاديًا لهيجان متوقع للبحر، مما أقنع الإنسان بجدوى العلم وفى المقابل بسذاجة تنبؤات رجال الدين.

٥- بعـد أن تلاشـى دور الإلـه من حياة البشـر، لم يعـد هناك مبرر لأن يضع لهم منظومتهم الأخلاقية، وارتبطت القيم الأخلاقية بمصالح البشر المادية العاجلة.

٦- قـدم العلم للإنسـان متوسـط عمر أطـول كثيرًا مـن ذى قبل، كمـا قدم له إنجازات علمية وحضاريـة حققت له ثراء ورفاهية لم يكن يتصورهمـا فـى يوم من الأيـام، فتبدلت عقيدته من الإيمـان بالإله إلى الإيمان بالعلم وقدراته وإنجازاته.

٧- يرى من أراد (إمسـاك العصا من الوسـط) أن الله قد خلق العالم ووضع فيه قوانين الطبيعة التى تُسَيِّره، إن ذلك يعنى أن الإله الخالق لم يعد يفعل شـيئًا لنا، وليس له أدنى تأثير فى أحداث العالم، إنه ببساطة إله لا أهمية ولا احتياج إليه.

٨- لذلـك كلـه، أخـذ الكثيـرون يتسـاءلون: إذا كان العلـم قـد قطـع شـوطًا كبيرًا فى فهـم آليات ظواهر كانت تُفَسَّـر بشـكل غيبى (ميتافيزيقي)، كالأمراض والرعد والبرق والزلازل....، فما المانع فى أن يتوصل العلم لتفسـير كل ما نعتبره من الغيبيات؟ وبذلك تلاشـت تمامًا الحاجة إلى الدين وإلى الإله.

وبدخـول القرن العشـرين، ظهرت مقولة «الدين أفيون الشـعوب» التى أطلقها كارل ماركس. ويقصد بها أن الأغنياء والحُكام يسـتغلون مفهـوم الدين لتخدير الفقـراء، وحملهم على قبول ما هم فيه من بؤس كأمر واقع، طمعًا فى الفردوس فى حياة بعد الموت، نتيجة لذلك كله، شـاعت مقولة فيلسوف الإلحاد فريدريك نيتشه التى ألقاها آخر القرن التاسـع عشر: هل مات الإله؟ وبدلاً من أن تظل قولاً لفيلسوف يعكس رأيًا يتبناه، أصبحت المقولة عنوانًا يتكرر فى الصحف اليومية.

الفكر الإلحادى المعاصر

● يتبنى الفكر الإلحادى المعاصر المفاهيم التالية:

١- نشأ الكون تلقائيًا، نتيجة لأحداث عشوائية، دون الحاجة إلى صانع.

٢- ظهرت الحياة ذاتيًا من المادة، عن طريق قوانين الطبيعة.

٣- الفرق بين الحياة والموت فرق فيزيائى بحت، سيتوصل إليه العلم يومًا ما.

٤- الإنسان ليس إلا جسد مادى، يفنى تمامًا بالموت.

٥- ليس هناك وجود للروح كنفخة إلهية.

٦- ليس هناك بعث بعد الموت.

٧- من كل ما سبق، ليس هناك حاجة إلى القول بوجود إله.

● وينقسم الملحدون إلى ثلاث مجموعات:

١- علماء وفلاسفة، تبنوا الإلحاد، ثم وجدوا فى نظرية التطور الداروينى (تطور الكائنات الحية نتيجة لطفرات عشوائية تحدث بالصدفة) حجتهم العلمية الكبرى.

٢- الشيوعيون، الذين يريدون تحويل المجتمعات البشرية إلى مستعمرات من النمل والنحل، ولن يمكن تحقيق ذلك فى وجود المعتقدات الدينية، فينبغى القضاء عليها ولو بالقوة.

٣- عدد لا بأس به من الصامتين! من كل الديانات والمجتمعات والأجناس، ممن لديهم شك، لكنهم لا يطرحونه للنقاش، ويمكن إرجاع شك هذه الفئة إلى عاملين:

- الانبهار بالمظهر العلمى والفلسفى الذى يطرح به أصحاب الفكر الإلحادى أفكارهم.

- الأسلوب المنغلق الذى تعلموا به دياناتهم، حيث يرفض معلموهم أى منطق أو علم يخالف ما يفهمون، وهو ما يُسمى بأسلوب «هُوَّا كده»، بل يَدَّعى هؤلاء المعلمون الانفراد بالفهم عن

الله، وعلى الآخرين أن يُسَلِّموا لهم بذلك.

● وينقسم الفكر الإلحادى إلى مجموعتين كبيرتين:

أ- الفكر الإلحادى القوى: يمثله هؤلاء الذين ينكرون وجود الإله، ويسوقون على ذلك الأدلة، ويبنون النظريات ويروجون لإلحادهم.

ب- الفكر الإلحادى الضعيف: يمثله الذين لم يجدوا أدلة كافية تقنعهم بوجود الإله، وهؤلاء لا يقومون بالترويج لأفكارهم.

وفى مجال الإلحاد تتردد مصطلحات ينبغى إدراك الفرق بينها، وأهمها:

الملحد **Atheist**: هو المنكر للدين ولوجود الإله.

اللادينى: يفضل الملاحدة أن يُطلق عليهم اللادينيين، بينما لفظ اللادينى يعنى من لا يؤمن بدين وليس بالضرورة أن يكون منكرًا للإلوهية.

ضد الدين **Antitheist**: هو الملحد الذى يتخذ موقفًا عدائيًا من الإله والدين والمتدينين.

الربوبى **Diest**: هو الذى يؤمن بأن الرب قد خلق الكون، ولكنه ينكر أن يكون قد تواصل مع البشر عن طريق الديانات.

اللاأدرى **Agnostic**: هو الذى يؤمن أن قضايا الألوهية والغيب لا يمكن إثباتها وإقامة الحجة عليها (كما لا يمكن نفيها)، باعتبارها فوق قدرة العقل على الإدراك.

المتشكك **Skeptic**: هو الذى يرى أن براهين الألوهية لا تكفى لإقناعه، وفى نفس الوقت لا يمكنه تجاهلها.

العلمانى **Secularist**: العلمانية دعوة إلى إقامة الحياة على العلم المادى والعقل ومراعاة المصلحة بعيدًا عن الدين، ومن ثم فهو اصطلاح سياسى لا علاقة له بعقيدة الفرد الدينية، ولا شك أن كثيرًا من العلمانيين لا دينيين، خصوصًا فى بلاد الغرب.

الفلسفة الإلحادية المعاصرة:

فى عام ١٩٣٦م، طرح الفيلسوف الإنجليزى سير ألفريد آير «الفلسفة الوضعية المنطقية» التى تقوم على «مبدأ التثبت»، الذى يرى أن قبول أى افتراض أو مسألة يتوقف على إثباتها أو نفيها عمليًا بالتجربة أو رياضيًا أو منطقيًا من خلال المدلول المباشر للألفاظ التى تشرح هذا المفهوم، ومن ثم فإن مفاهيم مثل الإله والروح والدين لا تعنى شيئًا ! إذ لا يمكن إثبات صحتها أو خطأها بهذه المناهج، ومن ثم يتساوى أمام العقل أن يكون الإنسان مؤمنًا أو ملحدًا.

ثم تنبه الفيلسوف آير إلى أنه لا يمكننا تطبيق قواعد البحث المستخدمة فى العلوم التجريبية التى تعتمد على الحواس (كالكيمياء والفيزياء) على العلوم الإنسانية (كالفلسفة والمنطق والأخلاق)، كذلك لا يمكن دراسة المفاهيم الدينية بمنهج المفاهيم العلمية، فلا ينبغى - مثلاً - محاولة فهم مقولة «أن الله موجود فى كل مكان» بمفاهيم المكان فى فيزياء نيوتن أو فيزياء أينشتين، عند ذلك أعلن سير آير فى خمسينيات القرن العشرين أن الفلسفة الوضعية المنطقية مليئة بالتناقض، وهكذا قام مؤسس هذه الفلسفة بإعلان موتها.

الإلحاد الجديد:

وفى عام ٢٠٠٦م، ظهر فى الغرب اصطلاح «الإلحاد الجديد»، الذى لم يكتف بإحياء مفاهيم الفلسفة الوضعية المنطقية بما فيها من نظرة مادية، بل رفض التعايش بين الإلحاد والدين. ولم يكتف بنقض الألوهية والمفاهيم الدينية وطرحها للتحليل العلمى والموضوعى، لكنه تبنى أسلوب الهجوم والانتقاص والسخرية.

وقد قامت هذه المفاهيم العدائية على كتابات ظهرت فى الولايات المتحدة وبريطانيا بين عامى ٢٠٠٤ - ٢٠٠٧م

لمجموعة من الملاحدة (١٣)، وقد استغل هذه الكتابات عدد من كبار الناشرين الغربيين ووقفوا وراءها طباعةً وتسويقًا، حتى لاقت رواجًا كبيرًا وقرأها الملايين واحتلت قوائم أعلى المبيعات.

ولا شك أن وراء الإلحاد الجديد أبعاد سياسية أسفرت عن وجهها فى السنوات الأخيرة، أهمها الترويج للخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا)، إذ أن كتابات هذه الفترة تتبنى مفاهيم صامويل هنتنجتون التى طرحها فى كتابه (صراع الحضارات) والتى تؤصل للعداء للإسلام فى نفوس الشعوب، لذلك فالإلحاد الجديد ليس جديدًا فقط فى عدوانيته ووقاحته والترويج له إعلاميًا، أو فى التناول العلمى للدين، ولكن أكثر الجديد ظهورًا هو مهاجمته للممارسات الإسلامية بل والإسلام ذاته.

وقد أسفر زعيم الملاحدة الجدد ريتشارد دوكنز عن هذا الوجه القبيح للإلحاد حين أعلن العام الماضى (٢٠١٢م) مرارًا أن أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م قد حولته من ملحد مسالم إلى ملحد أصولى ضد الإسلام، كما صرح (بعد أن كان معاديًا للمسيحية) بأن المسيحية يمكن أن تكون الحصن الأخير ضد شر أشد منها، وهو الإسلام، لذلك صرح دوكنز وغيره من الملاحدة بأنهم ليسوا «لا دينيين» بل إنهم «ضد الدين»، فالدين بالنسبة لهم يسمم كل شىء.

لذلك يركز الملاحدة الجدد على إظهار أن كل مصائب العالم وحروبه التى قُتل فيها الملايين كانت بسبب الدين، ولا شك أن ذلك إما جهل بالتاريخ أو تزوير مقصود لحقائقه، ألا يدرى هؤلاء أن الحربين العالميتين الأولى والثانية تجاوز قتلاها الخمسين مليونًا، ولم تكونا حربين دينيتين ؟ بل إن العداء للدين الذى

---

(١٣) أشهر هؤلاء الكتاب البيولوجى ريتشارد دوكنز، والفيلسوف دانيل دينيت وطبيب الأعصاب سام هاريس والإعلامى كريستوفر هتشنز.

مارسته الشيوعية الملحدة كَلَّفَ البشرية أكثر من تسعين مليون قتيل، حتى يمكن اعتبارها أكثر التجارب الفاشلة كُلفة فى التاريخ.

منهج الملاحدة الجدد:

يرسم كبير الملاحدة الجدد ريتشارد دوكنز خطة العمل التى ينبغى أن يلتزم بها الملحدون قائلاً: إذا كانت القطط (يقصد الملاحدة) لم تمثل قطيعًا بعد، فإن أعدادًا معقولة منها تستطيع أن تصدر ضوضاءً مزعجة لا يمكن تجاهلها.

ولإحداث هذه الضوضاء لم يكتف الملاحدة بالأساليب المعتادة، كتأليف الكتب والمقالات وإلقاء المحاضرات وعقد المناظرات والظهور فى البرامج التليفزيونية والفضائيات والحديث عبر شبكة المعلومات، لكنهم ابتكروا طرقًا جديدة، ففى أثناء سيرك فى شوارع المدن الكبيرة ببريطانيا، قد تقع عيناك على أحد أتوبيسات النقل العام الحمراء وعليه إعلان بطول الأتوبيس مكتوب فيه: «فى الأغلب ليس هناك إله، لا تقلق واستمتع بحياتك»، هذا بالإضافة إلى ظهور هذه الكلمات على مختلف السلع كالبيرة مثلاً، ويتحمل دوكنز جزءًا كبيرًا من تكاليف هذه الحملات بنفسه.

رسم الخطط: البديل عن الإله:

كانت الخطوة التالية أن يلتقى الملاحدة لتوحيد كلماتهم ورسم الخطط لما بعد إصدار الضوضاء، فعقدوا لذلك المؤتمرات، وكان من أشهرها ذلك الذى عقدته مؤسسة سالك فى كاليفورنيا عام ٢٠٠٦م بعنوان «ماذا بعد الإيمان: العلم - الدين - العقل - الحياة»، وقد انتهى المؤتمر إلى صياغة المفاهيم الأساسية التى ينبغى أن تنطلق منها ممارسات الإلحاد المعاصر، وهذه المفاهيم هى:

١- الدين وهم خطير، يؤدى إلى العنف والحروب.

٢- ينبغى التخلص من الدين، وسيقوم العلم بهذه المهمة.

٣- لا نحتاج لإله لنكون على خُلق، فالإلحاد يمكن أن يكون منطلقًا قويًا للأخلاق.

ويروج الملاحدة الجدد أن العالم المتحضر لم يعد يطيق صبرًا على الدين - خاصة الإسلام - الذى صار متطرفًا وخطيرًا إلى حد بعيد، لذلك ينبغى القضاء عليه، وفى ذلك يقول ستيفن وينبرج الحائز على جائزة نوبل فى الفيزياء: «ينبغى أن يفيق العالم من كابوس الديانات الذى طال! ينبغى علينا كعلماء أن نفعل أى شىء من أجل أن نخفف من قبضة الدين، ولا شك أن هذا سيكون عطاؤنا الأكبر للحضارة!!».

سبحان الله.. أينشغل العلماء عن العلم، ويصير عطاؤهم الأكبر للحضارة هو القضاء على الدين؟!

شيوع الإلحاد فى الغرب: إلى أى حد وصل الأمر؟

فى دراسة أجرتها الإذاعة البريطانية BBC عام ٢٠٠٤م فى عشر دول أوروبية كانت نسبة الملاحدة ٨٪، وفى دراسة أخرى أجرتها أيضًا الإذاعة البريطانية على البريطانيين ظهر أن: ٢٨٪ يؤمنون بالإله، ٢٦٪ يؤمنون بشىء ليسوا متأكدين من كنهه، ١٦٪ اعتبروا أنفسهم ملاحدة، ٩٪ لا أدريين، أما الباقون فلم يفكروا فى الأمر أو لا يعرفون أو لم يجيبوا.

وفى الولايات المتحدة، فقد أظهرت دراسة أجراها معهد جالوب عام ٢٠٠٥ أن نسبة الملاحدة بلغت ٥٪.

وبالنسبة للبلاد الإسلامية، فسنتعرض لشيوع الإلحاد فى الفصل الخامس.

متتالية

الفكر المادى، الحضارة المادية، ثم الإلحاد

ارتبطت نشأة الإلحاد المعاصر بظهور الفكر المادى ارتباطًا وثيقًا، حتى يمكن القول إن الإلحاد هو الابن الشرعى لهذا الفكر، ويُعتبر المفكر الكبير الدكتور عبد الوهاب المسيرى من أفضل من طرح هذه العلاقة فى وضوح وتناسق وتراكب، يقول د. المسيرى:

الحضارة الحديثة - فى تصورى - حضارة عقلانية مادية (لا عقلانية وحسب)، فإنجازاتها الضخمة (التكنولوجيا - العلم - السيطرة على العالم) نتاج رؤيتها المادية التى استبعدت الكثير من العناصر الأخلاقية والإنسانية (العناصر غير المادية)، وذلك لتبسيط الواقع بهدف التحكم فيه (إذ لا يمكن التحكم إلا فيما هو بسيط).

أما إخفاقات الحضارة المادية الحديثة فلا تقل ضخامة عن إنجازاتها، ومن أهم تلك الإخفاقات: الأزمة البيئية - الحروب العالمية - فقدان الاتجاه (أى أن لا يعرف الإنسان أين هو ذاهب) - ظهور العبثية (أى أن يتصور الإنسان أن العالم لا معنى له وأن الصدفة العمياء تتحكم فيه) - تحول الوسائل إلى غايات...، وهذه الإخفاقات - مثل الإنجازات - من نتاج الرؤية المادية للحضارة الحديثة.

وتمثل الحضارة الحديثة «بناءً ماديًا» ذا مستويين:

- مستوى فلسفى (الأفكار المادية، التى هى نتاج العقل المادي).
- ومستوى تطبيقى عملى، وهو المتمثل فى مظاهر الحضارة الحديثة، بإيجابياتها وسلبياتها.

والعقل المادى (الذى أنشأ هذه الحضارة) عقل محايد لا علاقة له بالأخلاق أو بالأسئلة الكلية (الخاصة بمنشأ الإنسان ومآله، والغرض من وجوده فى الكون) أو بالمقدس أو بما يتجاوز عالم الحواس الخمس المباشر، ويتعامل العقل المادى مع ما يصله من معلومات ومعطيات، ولا يمكنه أن يتجاوزها، ولذا فهو يفرز ما يمكن تسميته «منطق الأمر الواقع» أو «أخلاق الصيرورة»، أى أنه لا يعترف بوجود قيم أخلاقية أو إنسانية ثابتة مستقرة، ويرى أن كل شىء - بما فى ذلك تلك القيم - فى حالة تغير وتحول دائمين، ولذا يفرض هذا المنطق على الإنسان أن يستمد قيمه من واقعه المتغير.

والعقل المادى لا يهتم بالسمات الخاصة للظواهر أو خصوصيات كل إنسان فرد، فهو يركز على الجوانب العامة، ويمكن تشبيهه بأشعة إكس، التى يمكنها أن تعطينا صورة للهيكل العظمى للإنسان ولكن لا يمكنها أن تنقل لنا صورة الوجه الإنسانى فى أحزانه وأفراحه. وفى نفس الوقت قد يهتم هذا العقل بالتفاصيل بشكل مبالغ فيه؛ لذلك يمكن تشبيهه أيضًا بالميكروسكوب الذى يظهر أدق تفاصيل الخلية دون أن ينقل لنا الصورة الكلية لهذه الخلية.

ولما كان التاريخ بنية غير مادية، تتسم بالتركيب والإبهام، فلا يمكن للعقل المادى أن يتعامل معه بكفاءة، خاصة وأن التاريخ من صنع الإنسان ذى الجانبين (المادى والروحاني)، لذلك فالعقل المادى يقدس الأمر الواقع على حساب الحق التاريخى (يشير الدكتور المسيرى بذلك إلى الصراع العربى الإسرائيلي).

ونخلص من هذا إلى أن مهمة العقل المادى هى اختزال كل شىء

– بما فى ذلك الإنسان – فى جانبه المادى فقط، بهدف الاستفادة منه، لذلك فهو يقوم «بهدم الإنسان وتفكيكه» إلى عناصر مادية أولية، لذلك يعتبر الفكر المادى أن العقل يفكر كما تهضم المعدة الطعام وكما تفرز الكبد الصفراء، وهذه الرؤية العقلانية المادية للإنسان ترده إلى طينته وتنزع عنه القداسة وتفقده مركزيته فى الكون.

ويعقب عملية تفكيك الإنسان إلى عناصره الأولية المادية «عملية تركيب» فى إطار مادى أيضًا، فيعاد تركيب الإنسان ليصبح «منتج فى المصنع، ومستهلك فى السوبر ماركت، ومستمتع فى دور اللهو»، وبذلك لا يجد الإنسان وقتًا أو مجالاً لأى اهتمامات روحية متسامية، هذا ما آل إليه حال إنسان الحضارة المادية.

ويمكن اعتبار أن القرن التاسع عشر قد شهد انتقالاً تدريجيًا من الرؤية الآلية للإنسان إلى الرؤية العضوية، فإذا كان «نيوتن» قد جعل من الكون ساعة والإله هو صانع الساعات الماهر (الرؤية الآلية)، فإن عالم «دارون» العضوى يختفى منه «الإله» تمامًا؛ فأصول الإنسان تعود لأسلاف القردة العليا ومن قبلها الزواحف، ثم يؤكد «فرويد» أن غابة القِرَدة تقع داخل الإنسان فى شكل «واعى» مظلم وغرائز متفجرة، وقد أجرى العالم الروسى «بافلوف»(١٤) تجاربه على الكلاب ثم طبق نتائجها على الإنسان، فقد كان يفترض أنه لا توجد فروق جوهرية بين كليهما.

وأخيرًا يأتى «فوكوياما»(١٥) (فيلسوف ما بعد الحداثة)

---

(١٤) Ivan Pavlov: (١٨٤٩ – ١٩٣٦) عالم الفسيولوجيا الروسى الأشهر، مُنح جائزة نوبل فى الفسيولوجيا والطب عام ١٩٠٤.

(١٥) Y.F.Fukuyama: أستاذ العلوم السياسية والاقتصاد السياسي، أمريكى الجنسية، ولد عام ١٩٥٢ – أشهر كتبه كتاب «نهاية التاريخ» الذى صدر عام ١٩٩٢.

يزيد الطينة بله، إذ يقارن الإنسانية ببعض الأشكال التى خُطت على الرمال، ثم تمحوها الأمواجّ! أى أننا أصبحنا لا شىء، انتهى كلام د. المسيرى.

القارئ الكريم...

هكذا اختفى الإله الغيبى، كما اختفى الإنسان المتسامى من عالم الفكر المادى، ليحل محله الإنسان المادة الذى أنشأته الطبيعة، وبذلك صار الإلحاد المعاصر إفرازًا مباشرًا للفكر المادى.

***

الفصل الثاني

وفاق العلم والدين

يتمسح الإلحاد المعاصر فى العلم ويزعم أنه إلحاد علمى، ومن أجل تفنيد هذا الادعاء، وقفنا فى الفصل السابق مع الإلحاد وسماته، ونقف فى هذا الفصل مع طبيعة العلم ومجاله وحدوده لندرك حقيقة العلاقة بينه وبين الدين.

منذ القرن السابع عشر، أصبح للمعرفة فى أوروبا سبيلاً آخر غير مفاهيم رجال الدين والفلاسفة، وهو العلم، ولكن كيف يتوصل العلم إلى المعرفة وليس لديه نصوص مقدسة يغترف منها؟.

إن الطريق إلى تحصيل المعرفة (أى معرفة) يمر من خلال الإجابة عن سؤالين:

- السؤال الأول: لماذا (الغائية أو الحكمة) Why؟

لماذا خُلق الكون؟ لماذا خُلقت الحياة؟ لماذا الشقاء والتألم فى الدنيا؟...

أدرك العلماء أن الإجابة عن هذه الأسئلة، التى تبحث فى «الغاية» من الأشياء، تقع خارج نطاق العلم، فأنكر بعضهم الغائية، وقَبِلها البعض وتركوها لأهل السبق فيها، وهم الفلاسفة ورجال الدين.

- السؤال الثانى: كيف (الآلية أو الكيفية) How؟

وذلك هو مجال العلم، بشرط إخراج المخادعين والأدعياء من الميدان، ومن أجل تحصيل ذلك وُضع المنهج العلمى.

وإذا كان للدين الدور المحورى فى الإجابة عن السؤال الأول، وهو الغائية والحكمة، خصوصًا تعريف الإنسان بمصدره ومساره ومآله والغاية من خلقه، فهل له دور فى الإجابة عن السؤال الثانى الخاص بالآلية والكيفية؟

لا شك أن الدين يحدد للعلم الإطار الذى ينبغى أن يتحرك فيه، وليس فى ذلك قيد على العلم كما يعتقد البعض، لكنه يعصمه من أن يتردى فى مهاوٍ كالتى تردى فيها؛ من تفجيراتٍ ذرية تبيد البشر وتفسد البيئة لمئاتٍ وربما آلاف السنين القادمة، وعبث بالبنية الوراثية (الجينات) للكائنات الحية مما يمكن أن يُنتج مسوخًا حية شديدة الفتك بالأحياء، وغير ذلك من المجالات التى انطلق فيها بعض العلماء دون مراعاة لأبسط القواعد الأخلاقية للبحث العلمى.

تعريف العلم وقيوده:

من أهم تعريفات العلم، أنه «منهج يتعامل مع ما يوجد ويتكرر فى الطبيعة بشكل طبيعى وتحكمه قوانينها»، مثل دراسة الرياح ونمو النبات والتفاعلات الكيميائية وغيرها، ولهذا التعريف وغيره جوانبه الإيجابية، فهو يفرق بين العلم الحقيقى وبين الممارسات التى تُنسب خطأ للعلم، فيفرق مثلاً بين علم الفلك والتنجيم، وبين الطب والممارسات العلاجية الشعبية.

كذلك يُخرج هذا التعريف كل علوم البدايات، كبداية الكون، من حظيرة العلم، فالبدايات لا يمكن تكرارها، وليس لدى العلم تفسير لخروج الوجود من العدم، ومن ثم ليس هناك مفر من طرح التدخل الإلهى كآلية لنشأة الكون.

والمشكلة أن العلم يرفض التفسيرات الغيبية (الميتافيزيقية) ويخرجها من حظيرته، ومن ثم فالتعريفات المتاحة للعلم لا تحل مشكلة علوم البدايات، وفى نفس الوقت لا تقبل ما يطرحه الدين والفلسفة من حلول.

مجال العلم وحدوده:

يقول الفيلسوف الكبير برتراند راسل: «لابد أن تُحصَّل أى معرفة بالعلم، وما لا يستطيع العلم اكتشافه لا يستطيع الإنسان

معرفتـه » ، يعنـى ذلك أن العلم هو الطريق الوحيـد للمعرفة ، وأنه قادر على تفسـير كل شـىء ، وليـس هناك مبرر لاعتقـاد أن هناك حدود لقدرات العلم .

إن الاتجاه الذى يتبناه برتراند راسـل يُعرف بمذهب « العلمية Scientism » ، ويعتبر أنصاره أن أى حديث عن الإله أو الدين أو المشـاعر الروحية يقع خارج نطـاق العلم ، ومن ثم ليس حقيقيًا ، وإن كان ممتعًـا أو حتى مفيدًا ! ، فهـو لا يختلف عن الحديث عن الغول والتنين ومصباح علاء الدين وبابا نويل ! .

هـل هذا الادعـاء صحيـح ؟ أليس هنـاك حدود لمـا يمكن أن يفسـره ويكشـفه لنا العلم ؟ إن هذا الادعاء باطل ، إذ يلغى الكثير ممـا تعلمناه فى المدارس والجامعات ! ماذا عن الفلسـفة والأدب والفن والموسـيقى وعلم الأخلاق ؟ كيف يحكم العلم بأن قصيدة مـا (رص كلام) أو أنهـا إبـداع كبير ؟ هل يمكن ذلـك عن طريق إحصاء عدد الكلمات أو معرفة ترتيب الحروف ؟ .

كيف يحكم العلم أن لوحة ما تُعتبر قطعة فنية ثمينة وليسـت مجـرد تلويـث للقمـاش بالألـوان ؟ لا شـك أن ذلـك لـن يكون بالتحليل الكيميائى للأصباغ ، يسـتطيع العلم أن يخبرك أن وضع سم الاستركنين فى شـراب شخص ما سيقتله ، لكن لن يقول لك أن من الخطأ أن تفعل ذلك مع جدتك من أجل أن ترث أملاكها .

إن مقولـة برتراند راسـل مليئة بالتناقض ، فكيـف عرف أن ما لا يكتشـفه العلم لا يستطيع الإنسـان معرفته ؟ إن هذه المقولة لا يمكن إثباتهـا بالأدلة العلمية ، فكيف عرف راسـل أنها صحيحة واعتقد فيها بشـدة ؟ لذلك فـإن مذهب العلمية فيـه من التناقض الداخلـى مـا هـو كاف لتخطئته ، وليـس بحاجة لعوامـل خارجية لإفشاله .

وفى موقف آخر ، يتنبه عالم الفيزياء والرياضيات برتراند راسل

أنـه أيضًا فيلسـوف ! فيطرح تسـاؤلات محورية تثبـت محدودية مجـال العلـم ، فيقول : « إن أكثر الأسـئلة أهمية وإثـارة تقع خارج قـدرات العلم ، مثل ؛ إذا كان الوجود ينقسـم إلى مادة وعقل ، فما المـادة وما العقل ، وما العلاقة بينهمـا ؟ هل للكون غاية وهدف ؟ هـل هناك قوانين حقيقية تحكم العالم أم أنها من تصورات عقولنا التى تهوى النظام ؟ ولِمَ تهوى عقولنا النظام ؟ ما حقيقة الإنسـان ؟ هل هناك مسـلك محمود فى الحياة ومسـلك غير محمود ، أم أن هـذه تصوراتنا ؟ مثل هذه الأسئلة - وغيرها كثيـر - لا إجابة لها فى المعمل » .

هذا الطرح لراسل يثبت ما ذكرناه من أن البحث حول الغائية يقع خارج نطاق العلم .

المنهج العلمى ليس مؤمنًا ولا ملحدًا:

عند دراسـة ظاهـرة علمية ما كالأمطار والـزلازل ، هل يختلف المنهـج إذا كان الـدارس ملحـدًا أو مؤمنـًا ؟ ! ، نحـن نطـرح هذا التسـاؤل - الذى يبدو سـاذجًا - لأن البعض بـدأ يدعو إلى منهج علمـى مؤمـن ! إن ذلك يعنـى أن المنهـج العلمـى الحالى منهج ملحـد ، ترجع خطورة هذه الدعوة إلى أنهـا تؤكد ادعاء الملاحدة أن العلماء المتدينين منحازين ، كما تثبت أن الإلحاد يقف وراء ما حققه العلم من نجاحات حتى الآن .

سقطة الإلحاد الكبرى: الآليات تلغى الغائية:

يصف الإمام أبو حامد الغزالى لكل موجود (ككتاب مثلاً) عللاً أربـع ؛ العلة المادية وهى الأصباغ والـورق الذى صُنع منه الكتاب ، والعلـة الظاهـرة وهـى الهيئة التـى شُـكلَ عليها الكتـاب ، والعلة الفاعلة هـى المؤلف وصانع الورق وعامل الطباعـة ، والعلة الغائية وهى الغـرض الذى من أجله كتب الكاتب الكتـاب ، والعلة الغائية تقع خارج نطاق العلم ، ولا يستطيع أن يخبرنا بها إلا العلة الفاعلة .

ولما كان العلم لا يتعامل مع العلة الغائية، أسقطها الماديون واعتبروا أن القول بها معاد للعلم، وصار علينا أن نُقر أن الكون والإنسان وكل ما حولنا لا غاية من ورائه!!.

وحقيقة الأمر أن كل ما يقع فى الكون من أحداث وكل ما يقوم به الإنسان من نشاطات يجمع بين الآلية والغائية، فأنت تتناول الطعام بآلية البلع للاستمتاع بطعمه ولتحصيل الطاقة (غائية)، كذلك فأنت تستخدم السيارة (آلية) لتوصيل أولادك إلى المدرسة (غائية)، وهكذا...

إن قصور العلم عن التعامل مع العلة الغائية لا يلغى أن للعقل دوراً فيها، فإذا كان العقل يعجز عن التوصل إلى الغاية بذاته فهو الذى يحكم على مصداقيتها، فمثلاً إذا أخبرنا الدين أن الله تعالى هو العلة الفاعلة لهذا الكون، وأن الله قد أطلعنا على الغاية من خلقه لنا، فإن العقل يقوم بفهم هذه المعلومات والحكم على مصداقيتها، إن ذلك يعنى أن القول بالإله لم يعطل العقل ولا المنطق.

حاجة العلم إلى الإله الحق

نزع القداسة من الكون:

لا شك أن إسباغ القداسة على موجودات الكون وظواهره الطبيعية أمر معيق للعلم، فإذا تمسكنا بطرح الفلسفات اليونانية القديمة من أن الرعد والأمراض والكوارث الطبيعية وغيرها هى تعبير عن غضب الإله لتوقفنا عن دراسة تلك الظواهر، وما عرفنا آلياتها.

لذلك لم يتقدم العلم فى اليونان القديم إلا بعد أن قام بعض مفكريه بنزع تلك القداسة عن الكون، لكن الماديين وقعوا فى خطأين جسيمين، فقد فهموا من ذلك أن الإلحاد ضرورى

لممارسة العلم الحقيقى، كما وقع الملاحدة فى تخليط شديد حين اعتقدوا أن نزع القداسة عن الكون يعنى نزع القداسة عن خالق الكون.

ولا شك أن القرآن الكريم نزع القداسة عن موجودات الكون، وأظهر ذلك بوضوح شديد فى قصة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، حين رفض أن تكون الشمس والقمر والكواكب آلهة[١٦].

ونجد نفس المعنى تصريحًا فى السنة النبوية الصحيحة، فعندما توفى إبراهيم (ابن رسول الله ﷺ وصاحَب ذلك الحدث خسوف القمر، قال بعض المسلمين أن القمر قد خسف حزنًا على موت إبراهيم، لكن رسول الله ﷺ نهاهم وقال: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا حياته، لكنهما آيتان من آيات الله تعالى يريهما عباده،...» رواه البخاري

الآلية تحتاج إلى سبب أول:

ربما كانت أخطر سقطات العلماء (وليس العلم) تصورهم أن فهمنا للآليات الفيزيائية التى تعمل فى الطبيعة ينفى وجود إله صمم وخلق ويدير الكون، أى أنهم خلطوا بين الآلية والسبب الأول، ونبين ذلك الخطأ بالمثال التالى:

إذا استقدمنا إنسانًا بدائيًا من أدغال أفريقيا النائية، وليكن اسمه تونجا، وأركبناه سيارة حديثة من ماركة فورد، الأغلب أن تونجا سيعتقد أن هناك إله (مستر فورد) يقبع داخل محرك السيارة ويدفعها للسير، وقد يتصور أن مستر فورد طالما كان راضيا عنا سيدفع السيارة فى يسر وهدوء، وإذا غضب

(١٦) سورة الأنعام، الآيات ٧٥ : ٧٩.

علينا عطلها، ثم يلتحق تونجا بدراسة مكثفة لتعلم هندسة السيارات، ويكتشف أن محرك السيارة يعمل بآلية الاحتراق الداخلى، وأنه ليس هناك حاجة لوضع مستر فورد داخل المحرك، ولكن، هل ينفى ذلك أن هنرى فورد هو الذى اخترع المحرك ووفر له ظروف عمله، ولولاه لما وُجدت السيارات؟ ألا يكون استبعاد فورد من المنظومة خطأً منطقيًا ومنهجيًا؟!.

وعندما اكتشف سير إسحق نيوتن قوانين الحركة والجاذبية لم يقل: لقد اكتشفت الآليات التى تتحرك بها الأجرام، إذًا لا داعى لوجود الإله، بل زادته اكتشافاته إعجابًا بالإله الذى صمم هذه الآليات المُحكمة.

ومن ثم، إذا لم يتعارض وجود الآليات الفيزيائية مع وجود مخترع له غاية فى الابتكارات البشرية، فمن باب أولى أن ينطبق ذلك على ابتكارات الإله، وهذه بديهة عقلية لا علاقة لها بكونك مؤمنًا أو ملحدًا.

قوانين العلم من آليات عمل الإله:

يُخطئ كثير من المتدينين فى فهم معنى قول الحق تعالى:

﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

(يس: ٨٢).

فيعتبرون أن ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ تعنى أن الله تعالى يتدخل بشكل مباشر وفورى للقيام بكل عمل، بينما يبين القرآن الكريم (فى سبعة مواضع على الأقل) أن الله تعالى يستخدم الماء فى إنبات أو إخراج النبات:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾

(الأنعام: ٩٩).

معنى ذلك أن الله عز وجل اختار أن يكون عمله من خلال الأسباب، التى هى قوى وقوانين الطبيعة، هذا بالرغم من قدرته على إخراج النبات بالأمر المباشر.

إن إعداد كوكب الأرض ليكون مسرحًا للحياة استغرق عشرة بلايين سنة، كما أن وجود كل منا احتاج أن يتزوج والديا وأن نمكث فى الرحم تسعة أشهر، كذلك فإن اسم الله «المميت» يعمل عن طريق إصابة الإنسان بالأمراض (المزمنة والحادة والمفاجأة)، ويخبرنا الله تعالى أن هذه الأمور (وكل أمر) التى تتم بهذه الأسباب إنما تقع بكلمة «كن».

ومن غيرة الله تعالى على الأسباب أن جعل العقوبة مرتبطة بالتقصير فى الأخذ بالأسباب (الذى هو مسئوليتنا) بغض النظر عن النتائج (التى هى عطاء إلهي)، وفى ذلك يقول الحق تعالى:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾

(البقرة: ٢٨٦).

وفى هذا المعنى شاع القول الحكيم: «على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح».

إن دور الإله لا يقف عند الخلق والإمداد بقوى الطبيعة ووضع قوانينها التى تنظم عمل موجودات الكون، ثم يترك المنظومة تسير مثلما تُملأ الساعة الزنبركية، كما اعتقد أرسطو واعتقد الربوبيون من بعده وكما كان كفار مكة يعتقدون أيام بعثة المصطفى ﷺ:

﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾

(العنكبوت: ٦١)

إن عقيدتنا أن الإله «قيوم» على الكون، يقوم بإمداده بالإيجاد وبتفعيل قوانين الطبيعة في كل لحظة ولا يغفل عنه.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾

(البقرة: ٢٥٥).

كذلك فإن القول بأن الله تعالى يُسَيِّر الكون بقوى وقوانين الطبيعة لا يمنع أن لله مواقفًا يتدخل فيها بشكل سافر مباشر، كخلق «المُفردة» التى بدأ بها الانفجار الكونى الأعظم الذى أنشأ الكون (١٧)، وعقيدتنا أن الله تعالى قادر - بمشيئته وإرادته وقدرته - على التدخل المباشر فى شئون الكون فى أى وقت وأى موضع، لكنه تعالى شاء أن يكون عمله من خلال الأسباب، سبحان من لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

لقد أفضنا فى بيان هذا الأمر والاستشهاد عليه من القرآن الكريم ومن الواقع لأنه يمثل أحد أهم أسباب الإلحاد، فالملاحدة يهاجمون قول الأشاعرة بأن «كن فيكون» تُسقط القول بدور الأسباب والقوانين فى الطبيعة، حتى شاع عنهم القول بأن السكين لا يقطع ولكن القطع يحدث عند حد السكين، إن الماديين يتمسكون بفاعلية الأسباب، وهو أمر مُشاهَد فى حياتنا اليومية بل ويقوم عليه العلم الحديث كله، ونحن نؤيد فى مناظراتنا مع الملاحدة هذا الرأى لتفويت الفرصة عليهم، خاصة وأنه رأى الإمامين ابن تيمية وابن قيم الجوزية وأحد رأيين للإمام أبى حامد الغزالى.

(١٧) نفصل هذا الأمر فى الفصل القادم.

ليس إلهًا لسد الثغرات:

لا تخلو مناظرة بين المؤمنين والملحدين من اتهام المؤمنين بأنهم عندما يعجزون عن تفسير شىء بأسلوب علمى فإنهم يطرحون الإله كستار لجهلهم ولكسلهم العقلى، وفى نفس الوقت يستدلون بهذا الجهل على وجود إلههم، لذلك يصف الملاحدة الإله بأنه إله لسد الثغرات، أى كلما وجد المتدينون ثغرة فى العلم نسبوا إلى الإله القيام بها، ولصد هجوم الملاحدة، نقول إننا نلجأ للقول بتدخل الإله فى موقفين:

أ- نعود إلى قصة تونجا مع السيارة، هل كان الحديث عن مستر فورد سدًا لجهل فى فهمنا لآلية عمل محرك السيارة؟...

لا... فبالرغم من أن فورد لا وجود له فى أى خطوة من آلية عمل المحرك، فإنه مسئول عن وجود الآليات التى نعرفها والتى تحمل بصمات عقله وعمل يديه، إذًا فقولنا بالإله يأتى كسبب أول لما فسره العلم.

ب- وإذا نظرنا إلى الكون، نجد أن العلم قد أثبت أنه نشأ من عدم، بينما يخبرنا العلم نفسه أن المادة لا تفنى ولا تُستحدث (قانون بقاء المادة)، وهذا يوقع العلم فى حَرَج شديد؛ كيف أن المادة لا تُستحدث وكيف أن الكون نشأ من عدم؟!.

هنا يأتى طرح «الإله» لتفسير ما أقر العلم بعجزه عن تفسيره؛ الآن وفيما بعد.. يثبت هذين الموقفين أن إلهنا ليس إلهًا لسد ثغرات منشأها الجهل، لكنه السبب الأول وراء كل الآليات التى يكتشفها العلم.

***

العلاقة بين العلم والدين

يتضح مما سبق أن العلم والدين متكاملان، لكن الملاحد يتحدثون عن تعارض بينهما، ويسوقون على ذلك الأدلة، فهل هذ التعارض حقيقى أم ظاهري؟ فلنتأمل هذا التعارض بشكل أعمق

فهم قاصر للدين يعادى العلم:

ما أكثر ما يتحمل الدين من أوزار لا دخل له فيها، فما تحمل الدين نتيجة لفهم قاصر من رجال مخلصين أكثر مما تحمله م أفراد سيئ النية يقصدون الانتقاص منه، فكم خرج مخلصون ع الاعتدال والوسطية فى محاولاتهم لتنزيه الإله وتقديسه، فكانت النتيجة عكس ما يصبون إليه، وإليك بعض الأمثلة:

- كان الفيلسوف اليونانى الكبير أرسطو من المؤلهة، وعنده أراد تنزيه الإله رأى أنه لا يمكن أن ينشغل إلا بما يليق به، فانشغل بذاته وهجر مخلوقاته بعد أن وضع القوى والقوانين الطبيعية الت تدير الكون، بذلك قطع أرسطو صلة الإله بمخلوقاته وجعله إلهً لا لزوم له وأحاله إلى المعاش!.
- ركز عالم اللاهوت أغسطين Augustin (٣٥٤ - ٤٣٠م) على فكرة فداء المسيح للبشرية، فَحَوَّل أنظار الناس عن القيام بدورهم فى الدنيا إلى الاهتمام بالغيب، فقل الاهتما بدراسة العلوم الطبيعية، وأَخَّر ذلك تقدم العلم لألف عام.
- يُعتبر اضطهاد رجال الكنيسة الكاثوليكية لعالم الفلك جاليليو من الأحداث المشهورة في تاريخ العلم، بالرغم من أن جاليليو كان على إيمان عميق بالله، وكان يعتقد أن الله قد كتب بيده قوانين الطبيعة بلغة الرياضيات، لكن المشكلة أن جاليليو أكد مفاهيم كوبرنيكوس من أن الأرض ليست ثابتة وليست مركز الكون كما ترى مفاهيم بطليموس وأرسطو التى تبناها رجال الكنيسة ورأوا فيها تطابقًا مع سفر التكوين فى التوراة، فكان عداء رجال الكنيسة لجاليليو عداءً للعلم.

لم يكن هذا الاضطراب قاصرًا على اللاهوت المسيحى، فقد شهدنا منذ قليل عن نَفْى الأشاعرة (رغبة فى تنزيه الله تعالى) لفاعلية الأسباب، وبالإضافة إلى تعطيل ذلك لمسيرة العلم فقد وجد فيه بعض المسلمين (خاصة المتصوفة) مبررًا للانقطاع عن الدنيا والزهد فى الأخذ بالأسباب، فتبنوا حياة التقشف ولبس المرقعات واستجداء الناس، وهى أمور تسللت إلينا من الفكر الهندوسى.

فهم قاصر للعلم يعادى الدين:

يتبنى المذهب المادى أن كل الموجودات والحادثات نشأت ونشأ نتيجة لعوامل طبيعية، وألا شيء سوى الطبيعة، التى تعمل بمنظومة السبب والنتيجة، إنه كون مغلق مكتف بذاته، ليس هناك شيء خارجه يؤثر فيه، وليس هناك ما يوصف بفوق الطبيعة (الغيب) أو بالتسامى. ويلخص عالم الفلك كارل ساجان موقف المذهب المادى من الوجود قائلاً: «هذا الكون هو كل شيء، هكذا كان، وسيظل هكذا أبدًا».

وبالرغم من إيجابيات المنهج العلمى، التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق، فقد وقع فى خطأ كبير حين طرد من دائرة العلم كل ما ليس له تفسير مادى من معلومات وظواهر، بل أصبح العلماء لا يأخذونه مأخذ الجد ويقاومونه بشراسة، وقد انعكس هذا الفهم القاصر على بنية النظريات العلمية، فصارت ترفض الغيبيات (حتى وإن كان لها موضع فى السياق)، كما استبعدت من مخرجاتها أى تفسيرات نهائية غيبية كوجود الإله، وبالتالى صار هذا العلم المادى معاديًا للدين.

المحصلة: توافق عميق بين الدين وجذور العلم:

للعالم الفذ أينشتين مقولة مشهورة معبرة، يقول فيها: «إن

أكثر الأمور استعصاء على الفهم فى الكون أنه مفهوم! «تشير هذ المقولة إلى أن الكون وكل ما فيه منظم، مترابط، يخضع لقواني واحدة، وقابل للفهم والتنبؤ، وبدون هذه الحقيقة، وبدو استيقاننا بها ما كان للعلم أن يقوم، فما مصدر هذا الانتظام؟ و مصدر يقيننا بوجوده؟.

يُرجع العالم ملفن كالفن (الحائز على جائزة نوبل فى الكيميا الحيوية) هذا الانتظام وهذه القناعة إلى الإيمان بالإله الواح الذى أنشأ الكون ويديره بنظام وتناغم، حيث إن آلهة متعددي يديرون الكون كلٌ بقوانينه كان حتمًا سيؤدى إلى انهياره:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

(الأنبياء: ٢٢)

ويُرجع كالفن التوحيد إلى نبى الله إبراهيم عليه السلام! ومن ثم يصبح القول بالتوحيد هو الأصل التاريخى لاستشعار أن الكو منظم، ومن ثم يصبح التوحيد هو أساس العلم الحديث.

وإذا تأملنا الثورة العلمية التى حدثت فى ظل الحضار الإسلامية، وجدنا أنها كانت نتاج عنصرين أساسيين، الأول تأكيد القرآن الكريم على انضباط الكون، حتى إن العلما المسلمين أطلقوا على قوانين الطبيعة اصطلاح السنن الكونية والثانى، دعوة القرآن الكريم للنظر فى الآفاق والأنفس، واعتبا ذلك من أرقى مستويات العبادة:

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران: ١٩١).

من ذلك يمكننا تلخيص العلاقة العميقة بين بزوغ العلم وبين الدين بأن الإنسان تبنى العلم عندما توقع أن الطبيعة تتبع قوانين واحدة ثابتة، وقد حدث ذلك عندما آمن بالإله الواحد واضع القوانين.

ويتسم انضباط الكون والطبيعة بعدد من السمات التى يقوم عليها العلم، وأهمها:

١- الانتظام والمصداقية فى الوجود:

يتطلب قيام العلم بممارسة مهامه قدرًا عاليًا من الانتظام والمصداقية والقابلية للفهم والتنبؤ فى الوجود، تمامًا مثل أفعالنا المقصودة، فأنت مثلاً لا تستطيع أن تقود سيارتك إلى مكان ما فى ظل احتمال أن تتحول السيارة إلى شىء آخر فى أى وقت؛ كأن تصبح إبريقًا من الشاى أو صحبة زهور! وإذا كانت الشمس تظهر من الشرق منذ وَعَيْنا، فإننا نجزم أنها ستفعل ذلك غدًا ونتصرف على هذا الأساس، بالرغم من عدم وجود دليل علمى قاطع على حتمية ذلك، إن مبدأ انتظام الطبيعة يقوم على «الإيمان» الذى لولاه ما قام العلم.

٢- الثبات والقانونية:

يتسم انتظام الوجود ومصداقيته بـ«الثبات» الذى يتخذ شكل القوانين الطبيعية، وفى ذلك يقول عالم الفيزياء النظرية الكبير ستيفن هوكنج: «كلما ازدادت معرفتنا بالكون كلما تأكد يقيننا بأنه محكوم بالقوانين»، ويدفع آينشتين هذا المعنى خطوة أعلى بقوله: «يُدرك كل إنسان يهتم بالعلم بصورة جادة أن قوانين الطبيعة تعكس وجود روح كُلِّى أسمى كثيرًا من روح الإنسان».

وإذا كانت قوانين الطبيعة قد وُضعت لتحكم المادة غير العاقلة، فإن المادة لا تملك رفض الالتزام بها، هذا بخلاف القوانين الأخلاقية التى تحكم سلوك الإنسان حر الإرادة.

٣- فاعلية الرياضيات وقابليتها للفهم:

تقدمت الرياضيات ذراعًا بذراع مع تقدم العلوم الطبيعية خلال الثـورة العلمية فى الغرب، فقام الرياضيـون بتوصيف بنية العالم وسـلوكه - على تعقيدهمـا - بالمعادلات الرياضيـة، وفى ذلك يقـول عالم الفيزياء الكبير بول ديراك: «إن الإله خالق حسـيب، استخدم أعلى مستويات الرياضيات فى بناء الكون».

والمدهـش أنه يمكن التعبيـر عن هذه المسـتويات العليا من الرياضيـات بمعـادلات رياضية بسـيطة تقع فى نطـاق فهم طلبة المدارس، ويصف كبلر مؤسـس علم الفلك الحديث ذلك بقوله: «تقع قوانين الطبيعة ومعادلاتها الرياضية فى حدود قدرة الإنسـان علـى الفهم، وقـد أراد الإله أن نعرفها من أجل أن نشـاركه أفكاره بعد أن خلقنا على صورته»، ونحن نضيف؛ ومن أجل أن نُسَخرها للقيام بواجبات الخلافة فى الأرض.

٤- قابلية الكون للفهم والتنبؤ:

أدت السـمات الثـلاث السـابقة إلـى أن صار الكون متناسـقًا متكاملاً بشكل مدهش، حتى إن علماء الكيمياء قد تنبئوا بوجود عناصـر كيميائيـة لـم تكن قد اُكتشـفت بعـد وتوقعـوا صفاتها وخواصهـا، كما تنبأ علماء الفلك بوجود كواكب لم تُرصد بعد، كما توقعوا مسـاراتها وكتلتها وسرعتها، لقد صار الكون مفهومًا قابلاً للتنبؤ.

الانسجام بين عقولنا وبين الوجود:

يرجـع مـا ذكرنا من سـمات يقـوم عليهـا العلم والكـون إلى «المنطقيـة» فى جانبين؛ منطقية فى بنية الكون، ومنطقية تفكير العقل البشـرى، إن وجود الإلـه الخالق الحكيم وإنشـاؤه الكون والعقل الإنسـانى بما يتميزا به من منطقيـة متوافقة متناغمة لهو التفسير الوحيد لقدرة عقولنا على فهم الكون.

إذا اختلف العلم مع معتقداتنا

إذا لمسـنا قـدرًا من عـدم الانسـجام بين بعـض «المفاهيم العلميـة» وبعـض «معتقداتنـا الدينية الصحيحـة»، فهل يعنى ذلـك وجـود تضاد بين العلـم والدين، أم يمكـن قبول قدر من عدم الانسجام بينهما؟.

تتوقف الإجابة عن هذا السـؤال على مـدى حجية المفهوم العلمـى، وأيضًا مدى أصالة المعتَقـد محل التعارض، ويتوقف هذان المحوران على عدة عوامل أهمها:

١- طبيعة المفهوم العلمى المعارض للمعتَقَد:

إذا كان المفهـوم العلمـى محورى راسـخ، ككروية الأرض ودورانها حول الشـمس، فذلك يحتم إعادة النظر فى المعتقد الدينى، أما إذا كان المفهوم العلمى احتمالى، كتفسير حدوث الرؤى والأحلام، فذلك المفهوم لا يقف بقوة فى وجه المعتقد الدينى بحدوث الرؤى الصادق.

٢- طبيعة الدليل على المفهوم العلمى المعارض المعتقد:

تتـراوح الأدلـة العلميـة فى حجيتهـا، فالبرهـان الرياضى والدليل العقلى والدليل التجريبى هى أقوى الأدلة (بالترتيب) علـى القضايـا العلمية، ويأتـى بعدها الدليل الحسـى، من ثَمَّ فالمفهـوم العلمى الـذى تقف وراءه أحد الأدلـة الثلاثة الأولى أقـوى حجية فى مواجهـة المعتقد الدينى من ذلـك الذى يثبته الدليـل الحسـى، وقـد جهل معظـم الملاحدة هـذه الحقيقة، فأخذوا يطالبون بالدليل الحسـى على وجـود الإله، ظنًا منهم أنه الدليل الأقوى!.

٣- أصالة المعتَقَد الدينى محل النقاش:

يخلط الكثيـرون بين الثوابت الدينية وبين ما هو تفاسـير لنصوص مقدسة قدمها المفسرون القدامى فى إطار ما توصل إليه العلم فى زمانهم، مثل استواء الأرض ودوران الشمس حولها!، وللأسـف فإن الكثير من المعاصرين يتصدون للدفاع عن هذه التفاسـير باعتبارها من ثوابت العقيدة، بل ويهاجمون بشـدة من يحاول التوفيق بينها وبين حقائق العلم ونظرياته الراسخة، إنه نفـس الموقف الذى تبناه رجال الكنيسـة الكاثوليكية فى العصور الوسطى فى أوروبا، وما أشبه الليلة بالبارحة.

٤- طبيعة المذهب الفلسفى الذى تعتنقه:

إذا كان الإنسـان مـن أنصـار المذهـب المادى الـذى ينفى تمامًـا وجود المفاهيـم الغيبية والدينية، فـإن المعتقد الدينى محـل المقارنة بالمفهوم العلمى سـيكون مرفوضًا دون تقديم أى استدلال.

٥- طبيعة مفاهيمك الشخصية:

إن فشـلت فى صباح يوم بارد فى أن تدير محرك سـيارتك، فسـتخطر على بالك عدة أحتمالات حول ما أصاب السيارة من عطب، ليس منها أن روحًا شـريرة قد تَلَبَّسَت المحرك. أما إذا كنتَ أحد رجال الهنود الحمر، ورفض فرسك الانقياد لك، بل إنه هاج ورفسك، فإن احتمال الروح الشريرة سيكون مطروحًا بقوة.

وبالنظـر إلى هـذه العوامـل الخمسـة، نؤكد أننـا لم نجد تعارضًـا حقيقيًـا بين أى مـن حقائق العلم ونظرياته الراسـخة وبين ثوابتنـا الدينية، وإذا وُجد هذا التعـارض، فما عليه كبار المفسـرين المعاصرين أنه ينبغى تأويل النص الدينى ليتمشى مع العلم دون اعتساف لأى منهما.

الإيمان الديني ليس موقفًا نفسيًا بغير دليل

يدعـى الملاحدة أثناء المحـاورات والمناظـرات أنه لا يمكن إثـبات «قضية الألوهية» بالبرهـان والدليـل، وأحيانًا يضيفون - مجاملـة - كما لا يمكن إثبات خطئها، ومـن ثم يعتبرونها قضية إيمانيـة قلبيـة، ويقصد الملاحـدة بقولهم «إيمانيـة» أنها موقف نفسى غير موضوعى، ولا يمكن طرحه للاستدلال العلمى.

ونصيغ هذا الرأى للملاحدة على هيئة سؤالين:

- هل حقًا الإيمان موقف نفسى بغير دليل؟.
- هـل البراهيـن العلمية قضايـا موضوعية تمامًـا لا يخالطها إيمان قلبي؟.

دعنا نتأمل هاتين القضيتين بعمق.

هل تتعارض المعرفة مع الإيمان؟

لا يكتفـى الملاحـدة بادعـاء أن الإيمـان هـو التصديـق دون دليـل، بل يضيفون إلى ذلك أن الدليل يضعف الإيمان ولا يقويه، وبالتالى يعتبرون أن الإيمان بغير دليل هو أسـاس الدين، ومصدر الاستمتاع به!.

لا شـك أن الفيلسـوف الألمانـى الكبيـر «إيمانويـل كانت» مسـئول إلى حد كبير عن شيوع الدعوى الخاطئة بتناقض الإيمان مع المعرفة، انظر إلـى قوله: «من أجل أن نترك مجالاً للإيمان فى قلوبنا ينبغى أن نتنكر للمعرفة، فـإذا كان هناك دليل على وجود الإله فلن يكون هناك مجالٌ للإيمان».

إن هـذا القـول يتعارض مع النقـل والعقل والمنطق، بالنسـبة للنقل، فدين الإسـلام يتفرد بأنه قائم علـى الحجة والبرهان حتى فى أهم الأمور الغيبية، انظر إلى قوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(فصلت : ٥٣)

وإذا كانت الآية تتحدث عن القرآن الكريم ، فإثبات أن القرآن حق يعنى بداهة أن الإله الذى أرسله حق .

وبالنسبة للعقل ، فخبراتنا اليومية تؤكد أن كلما ازدادت معرفتنا بشىء أو بشخص كلما ازداد إيماننا به .

أما بالنسبة للمنطق ، ففى إحدى مناظراتى قال الملحد : كلما ازداد إيمان الإنسان بشىء ، كلما تضاءلت فرصة أن يشتمل هذا الشىء على حقيقة ، فسألته : هل تؤمن أنك موجود ؟ وأجبت بالنيابة عنه ! : إن قلت نعم تضاءلت فرصة أن يشتمل هذا القول على حقيقة ، وكلما ازداد إيمانك بوجودك كلما قلّت صحة ما تقول ! وأضفت : إن ادعاءك يناقض نفسه ، ثم سألته : هل إيمانك بإخلاص زوجتك لا دليل عليه ، وهل هذا الإيمان لا يشتمل على شىء من الحقيقة ؟ ! لم يجب الملحد .

وللأسف ، يشارك كثير من المتدينين الملاحدة الرأى بأن الإيمان لا يقوم على دليل عقلى ، ويحتجون على ذلك بقول الحق تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

(البقرة : ٣)

إن الآية الكريمة - وغيرها كثير - التى تحدثنا عن الإيمان بالغيب لا تعنى أن هذا الغيب لا يُستدل عليه ، قد تعترض قائلاً : وكيف يكون غيبًا إذا أمكن الاستدلال عليه ؟ ! أجيبك بأن حساباتنا العقلية كثيرًا ما تجزم بيقين بوقوع أحداث معينة فى الغد ، وتَصْدُق توقعاتنا ، هل ينفى ذلك أن أحداث الغد من أمور الغيب ! .

ويعبر شيخنا الشعراوى أن العقل دابة تقودنا إلى باب السلطان ، فإذا دخلنا عليه تركنا الدابة بالباب ، ويقصد إمامُنا بذلك أن لابد من البرهان العقلى فى «أساسيات العقيدة» ، وهى الألوهية والنبوات ، أما ما بعد ذلك من أمور الغيب ؛ كالملائكة والجن وسؤال القبر وهيئة البعث والتفاصيل عن الجنة والنار فنؤمن بها نقلاً عن القرآن الكريم وإخبار الرسول ﷺ .

هل يشتمل العلم على إيمان قلبى:

نجيب عن هذا السؤال بما ذكرناه من أن العلم يقوم على أن الشمس ستظهر غدًا من المشرق دون أن يكون لديه دليل قاطع على ذلك ! لا يكتفى أينشتين بالربط العقلى بين العلم والإيمان ، بل يؤكد أن العلاقة متغلغلة فى نفوسنا فيقول : «يغذينا العلمُ بشعور دينى عميق ، يختلف عن الشعور الدينى الساذج عند كثير من الناس ، بل إننى لا أتصور عالمًا حقيقيًا لا يستشعر ذلك» ، ويضيف أينشتين : «ويمكن تشبيه الموقف بصورة مجسدة : العلم دون الدين أعرج ، والدين دون العلم أعمى» .

سبحان الله . . . أليس هذا المعنى تصديقًا لقول الحق تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

(فاطر : ٢٨) .

فرويد بين أوهام الإيمان وأوهام الإلحاد؟

تعنى «الأوهام» بالمعنى الاصطلاحى النفسى ؛ «تصديق خاطئ ثابت يقف فى وجه براهين قوية معاكسة ، وقد اعتبر عالم النفس سيجموند فرويد أن الإيمان بالإله نوع من التوهم ، وأرجعه إلى عجز الإنسان عن التعامل مع ما فى العالم من تحديات فافترض وجود قوة غيبية تدعمه . أى أن الألوهية - عند فرويد وغيره من الملاحدة - اختراع للتعامل مع مخاوف الإنسان التى

تتصاعد لتبلغ أقصاها بالموت، إذًا فالقول بالألوهية نوع من آليات الهروب، ولا شك أن استخدام فرويد لاصطلاح «الأوهام» لم يكن جديدًا، فقد استخدمه الكفار والمشركون فى هجومهم على الإله وعلى أنبيائهم.

ويدفع عالِم النفس الألمانى مانفريد كيوتز ادعاءات فرويد قائلًا: إن تفسير فرويد للإيمان بالإله باعتباره أوهامًا صحيح تمامًا، إذا كان الإله حقًا غير موجود، أما إذا كان الإله موجودًا، فبنفس التفسير الفرويدى يصبح الإلحاد هو التوهم، إذ يُعتبر هروبًا من الحقيقة، ورغبة فى عدم لقاء الإله يوم القيامة خوفًا من محاسبته على ما جناه الشخص فى حياته، وبذلك يصبح الإلحاد آلية دفاعية هروبية خشية مواجهة الإنسان لنتائج أفعاله»، وبذلك يصبح القول بالعدم بعد الموت مورفينًا قويًا، يخدر نفوسنا ويجعلنا نتوهم أننا لن نُحاسَب على ما نقترف من خيانات وسرقات واغتصاب وقتل وجشع وجبن، وهذا ما دفعنا لأن نطلق على هذا الكتاب اسم «وهم الإلحاد»...

القارئ الكريم...

عسى أن تكون قد استيقنت أن ما يبدو من تعارض بين العلم والدين إنما هو تعارض ظاهرى، يرجع إلى سوء فهم كل منهما، أما الحقيقة أن هناك توافقا عميقا بين الدين وجذور العلم، فالإنسان كما ذكرنا منذ قليل تبنى العلم عندما توقع أن الطبيعة تتبع قوانين واحدة ثابتة، وقد حدث ذلك عندما آمن بالإله الواحد واضع القوانين.

***

الفصل الثالث

العلم بين الإله والإلحاد

يعتبر زعيم الملاحدة المعاصرين ريتشارد دوكنز أن الإيمان بالإله هو أكبر الشرور فى العالم! لذلك ينبغى التخلص منه كما تم التخلص من الجدرى من قبل! ويضيف دوكنز: عندما يعانى شخص من التوهمات فإننا نعتبره معتوهًا، أما عندما يعانى أشخاص كثيرون من التوهمات فإننا نعتبرهم متدينين!.

ويردد الملاحدة أن كل اكتشاف علمى يفسر ظاهرة ما من ظواهر الطبيعة يسحب من رصيد الألوهية، لذلك على البشرية أن تقبل أن العلم قد قضى على أى مبرر للاعتقاد بوجود سبب أول، ونفى كذلك وجود غائية من الوجودات.

والعجيب أن زعماء الملاحدة يعتقدون أنه لم يعد هناك معركة بين العلم والإله، بل إن المعركة قد انتهت بفوز العلم وموت الإله (كما قال نيتشه)، ويعبر عن هذا المعنى أحد الملاحدة قائلًا: إن العلم والدين لا يمكن أن يتعايشا، وعلى الإنسانية أن تُعلى من شأن طفلها (يقصد العلم) وأن ترفض كل محاولات التوفيق، وأن تُعَرِّى فشل الدين فى مواجهة العلم، وأن تُنَصِّب الأخير ملكا، يالها من لغة صفيقة مليئة بالزهو والتكبر.

ودحضًا لهذا الهراء، نُذَكِّر بما أثبتناه فى الفصل السابق، من أن العلم والدين لا يتعارضان، لكنهما يتكاملان، وأيضًا ما أثبتناه من أن الإله يقف وراء قصة العلم كلها؛ النظام المدهش، الانضباط، المصداقية، القابلية للفهم والتنبؤ.

وتأكيدًا لهذا المعنى نبين أن معظم العلماء الكبار الذين قامت على أكتافهم الثورة العلمية التى نقلت أوروبا من

العصور الوسطى إلى العصور الحديثة كانوا من المؤلهة[١٨] وكانت تحركهم القناعة بأن الخالق الذى أمدنا بالحواس والعقل والذكاء يريدنا أن نستخدمها للتوصل إلى المعرفة.

كذلك فإن العلماء الكبار من مؤسسى الفيزياء الحديثة (فيزياء الكوانتم) والحاصلين جميعًا على جائزة نوبل كانوا من المؤمنين بالإله[١٩].

وأيضًا، كان كبار علماء المخ والأعصاب الحاصلين أيضًا على جائزة نوبل، والذين قام على أكتافهم فهمنا لبنية المخ البشرى وآليات قيامه بوظائفه كانوا من المؤلهة[٢٠].

لا شك أن هذه الأمثلة الثلاثة تقضى على الهراء الذى يملأ به الملاحدة الساحة، مرددين أن معظم العلماء الكبار من الملاحدة ويُزَوِّرون الإحصائيات من أجل إثبات ذلك.

وسنطرح فى هذا الفصل أهم المفاهيم والقضايا العلمية التى يستند إليها الماديون فى إلحادهم، لنرى كيف ينطلق منها المتدينون نحو إيمانهم، وأهم هذه المفاهيم والقضايا:

* نشأة الكون وبنيته.
* نشأة الحياة ومعناها.
* التطور البيولوجي والداروينية.
* المخ والعقل البشرى.

(١٨) من هؤلاء: جاليليو، ونيوتن، وباسكال، وبويل، وفاراداي، ومندل، وباستير وماكسويل.

(١٩) هؤلاء هم: أينشتين، وماكس بلانك، وهيزنبرج، وشرودنجر، وبول ديراك.

(٢٠) هؤلاء هم: روجر سبيري، وويلدر بنفيلد، وتشارلس شرنجتون، وجون إكلز.

كان الثلاثة الكبار من فلاسفة اليونان القديم (سقراط، وأفلاطون، وأرسطو) من المؤمنين بوجود الإله الخالق للكون، وكان أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م.) يؤمن بأن الإله قد أنشأ الكون من موجود أزلى لم يتشكل ولم يكتسب أية صفات، وأطلق عليه اسم «الهيولي»، وتعنى أصل الوجود، والقول بالهيولى يجعل مع الإله موجودا أزليا آخر، وهذا يوقع أرسطو فى الشرك.

وبالرغم من أن الإسلام بَيَّن أن الكون حادث، أى له بداية، كما قدم علماء الكلام الأدلة المنطقية على ذلك، فقد ظل المفهوم السائد عند الفلاسفة والعلماء هو أن الكون «قديم أزلي»، أى لا بداية له، وفى عام ١٩٢٩م توصل عالم الفضاء الأمريكى إدوين هابل إلى أن مجرات الكون تتباعد، أى أن الكون يتمدد، وهذا يعنى أن للكون بداية بدأ منها هذا التمدد.

الكون بداية.. من الشك إلى اليقين:

قبل انصرام القرن العشرين، أصبح علماء الكونيات يمتلكون أربعة أدلة قاطعة على أن للكون بداية، وأصبح هذا المفهوم بمثابة الحقيقة العلمية البديهية، وهذه الأدلة هى:

أولا: ما ذكرناه من أن أدوين هابل أثبت أن الكون يتمدد.

ثانيًا: تتناقص حرارة الكون تدريجيًا، ولو كان أزليًا لوصل إلى العدم الحرارى، مما يعنى فناء الكون، لذلك فبقاء كوننا حتى الآن يعنى أنه ليس أزليًا.

ثالثًا: نجح العلماء فى تسجيل الضجيج الكونى الذى صاحب الانفجار الأعظم الذى أنشأ الكون.

رابعًا: يثبت وجود العناصر الخفيفة (الهيدروجين والهيليوم) وتوزيعها بشكل متساو فى مختلف أرجاء الكون أن الكون نشأ من حادث واحد مهول منتج للحرارة، وهو الانفجار الكونى الأعظم.

هكذا أجاب العالم على القضية الفلسفية المعقدة حول: «ها
الكون قديم أم حادث؟» فقال كلمته - التى اتفقت مع كلمة الدي
- بأن الكون حادث.

نظرية الانفجار الكونى الأعظم Big Bang Theory:

تُعتبر هذه النظرية أكثر النظريات قبولاً لتفسير نشأة الكو
إذ تقف وراءها أدلة قوية تضعها فى مصاف الحقائق العلمية.

طرح العلماء هذه النظرية انطلاقًا من حقيقة أن الكون يتمد
فإذا رجعنا إلى الوراء يومًا قبل يوم نجد أن الكون كان أص
وأصغر، وهكذا حتى نصل إلى يوم كان الكون مجرد نقطة تحم
كتلة الكون كله وطاقة الكون كله، وبالحسابات الرياضية ثب
أن هذا اليوم يرجع إلى قرابة ١٣,٧ مليار سنة.

أطلق العلماء على النقطة التى بدأت منها نشأة الكون اس
«المفردة Singularity». وفى يوم - لا أمس له - انفجر
تلك المفردة، فأطلقت كل ما فى الكون من طاقة، ومع تما
نواتج الانفجار بَرُدَت، فتكثف بعضٌ من طاقة الكون إلى ما
تكونت منها مجرات الكون بما فيها من نجوم وكواكب من
كوكبنا الأرض.

وقبل وجود المفردة لم يكن إلا عدم مطلق، وبانفجارها نشأ
الطاقة والمادة، كما بدأ الزمان ونشأ المكان، وهذه المكونا
الأربعة هى الكون وهى الطبيعة؟؟

العلم يقودنا إلى الإله:

تشتمل نظرية الانفجار الأعظم التى تفسر نشأة الكون ع
عدد من المعالم الخارقة والتساؤلات التى لا يملك العلم
تفسيرًا، وأهمها:

١- ما مصدر المفردة التى ظهرت فى العدم المطلق، وكا
تحمل طاقة الكون كله ومادة الكون كله.

٢- ما مصدر قوانين الطبيعة التى وجهت نشأة الكون، ومنها ما ذكرناه من أن تمدد الكون يؤدى إلى تَبَرُّد، وأن التَبَرُّد يؤدى إلى تَكَثُّف الطاقة إلى مادة.

٣- اتسمت «المفردة» بعدد من الصفات التى تتجاوز قوانين الطبيعة، فقد كانت أصغر من أصغر طول تسمح به قوانين الطبيعة، كما كانت كثافتها تفوق الحد الذى تسمح به هذه القوانين.

٤- ينص القانون الثانى للديناميكا الحرارية على أن: «فى منظومة ما، تؤدى الفوضى إلى مزيد من الفوضى ما لم يتدخل مُنَظِّم لتنظيمها»، وكان طبيعيًا أن يعقب الفوضى التى صاحبت الانفجار الكونى مزيد من الفوضى، فما هو «المنظم» الذى نَظَّمَها لِيُنشئ المجرات بما فيها من نجوم وكواكب.

٥- تجاوزت سرعة تمدد الكون الوليد سرعة الضوء بمليارات المرات، بينما الثابت أن سرعة الضوء هى أعلى السرعات فى الطبيعة.

٦- لماذا انقطع العدم المطلق ليبدأ الوجود فى هذه المرحلة بالذات، ما هو العامل المُرَجِّح الذى حدد (أو قرر) ذلك؟.

وقد فشل الماديون فى طرح فرضيات مقبولة لتفسير هذه المعالم الخارقة لقوانين الطبيعة والتى صاحبت المراحل الأولى من نشأة الكون، ولم يبق أمام المنصفين منهم إلا قبول الطرح الذى يقدمه المتدينون، وهو أن الله تعالى القديم الأزلى هو الذى أوجد هذه المفردة فى العدم المطلق بصفاتها الخارقة، فى هذه المرحلة بالذات، كما كتب قوانين الطبيعة التى وجهت نشأة الكون وبقاءه قبل أن يبزغ إلى الوجود.

البرهان الكونى Cosmic Argument:

تُطلق الفلسفة الحديثة على ما ذكرناه من أن «نشأة الكون من عدم مطلق تحتاج إلى سبب أول (موجد) هو الإله الخالق» اسم

«البرهان الكوني»، وقد طرح علماء الكلام الإسلامى هذا البرهان منـذ ألف عـام، باسـم «برهـان الوجـود» وصاغوه فـى مقدمتين واستنتاج:

أ- كل موجود له بداية، لابد له من مصدر سابق له (موجد).

ب- الكون له بداية.

إذًا: الكون له مصدر سابق عليه (موجد)

وبالرغم من سلاسـة ووجاهة الاسـتنتاج المنطقى فى البرهان الكونـى واعتماده على أرضية صلبة من العلم والفلسـفة، فمازال هنـاك من يحاول التهرب من القول بالإله الخالق، ونظرًا لسـلامة الاسـتنتاج فى البرهان الكونى، فقد ركز الملحدون على مقدمتى البرهان (أ، ب). فادعى بعضهم أن الكون ليس له بداية، بالرغم مـن أن هذا أمر حسـمه العلم منـذ بداية القرن العشـرين، وادعى آخـرون أن الكون الذى له بداية قد لا يحتاج إلى موجد! وهذا أمر قد حسـمه المنطق والفلسفة منذ زمن بعيد، وقد حاول الملاحدة وضـع فرضياتهـم المتهالكة فـى هيئة نظريات علميـة لم تصمد واحدة منها أمام النقد والتفنيد.

برهان الضبط الدقيق Fine Tunning Argument:

لا يقف الإبهار فى نشأة الكون عند النقاط الست التى ذكرناها منـذ قليل، فالفيزيائيون وعلمـاء الفلك المعاصرون يخبروننا أن ثوابـت الكون الفيزيائية تـم ضبطها بدقة متناهيـة بحيث يتلاءم بعضهـا مع بعض بالهيئة التى سـمحت بنشـأة الكـون، ومن هذه الثوابت: سرعة تمدد الكون، توزيع المادة فى فراغ الكون، مقدار الجاذبية بين الأجرام السـماوية، كتلة وسـرعة وشـحنة مكونات الذرة (الإلكترونـات والنيوترونات والبروتونات)، مقدار الطاقة والروابط الكهربائية التى تربط بين مكونات الذرة، مقدار سـرعة الضـوء، وغيرها كثير، وقد أثبـت العلماء أن أدنى تغير فى مقدار

هـذه الثوابت (ولو بجزء من مليار جزء) ما كان ليسـمح بنشـأة الكون واستقراره.

وقد اسـتنتج العلماء من هذه العلاقات الدقيقة ما صار يُعرف بـ «برهان الضبط الدقيق أو برهان التناغم»، وصاغوه كالآتى: «تدل دقة بنية الكون وقوانينه على وجود الإله الحق».

المبدأ البشرى Anthrobic Principle:

إذا كان العلمـاء يؤكـدون أن ثوابـت الكـون الفيزيائيـة قـد تـم ضبطها بدقة بحيث تسـمح بنشـأة الكون، فقـد ثبت أن هذه الثوابت تم ضبطها أيضًا بحيث تسمح بظهور الحياة على كوكب الأرض، بل وظهور الإنسـان أسمى الكائنات، ورأوا فى ذلك دليلاً على «الغائية»، التى تعنى أن الإله قد صمم الكون وكوكب الأرض على هذا التوافق المذهل ليكون مناسـبًا لنشأة الحياة بصفة عامة وظهور الإنسـان بصفـة خاصة، ويعـرف هذا المفهوم بــ «المبدأ البشـري»، وهو مـا يعرف فى الإسـلام بمفهوم «التسـخير»، أى تسخير كل ما فى السماوات والأرض لخدمة الإنسان:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (إبراهيم: ٣٣).

وقـد عبر بعض العلمـاء المؤمنيـن الغربيين عن هـذا المعنى بصياغات دالة، فقال أحدهم: كيف يستطيع كون خال من الغائية أن يخلـق إنسـانًا تحركه الغائيـة والأهداف، وقال آخـر: يبدو أن الكـون قد تم تفصيله على مقاس الإنسـان، وقـال ثالث: يبدو أن الكون كان يعلم أننا قادمون.

موقف الملاحدة من الكون:

رأينا فى جولتنا السـابقة كيف تمثل نشـأة الكون وبنيته دليلاً علـى وجود الإلـه، وذلك من خـلال «البرهان الكونـي» و«برهان

الضبط الدقيق»، ورأينا كيف أن الكون وكوكب الأرض قد تم ضبطهما بحيث يسمحان بنشأة الحياة والإنسان، بل ويخدمان وييسران إقامته فى هذا العالم، وهذا ما يعرف فى العلم بـ«المبدأ البشري» وفى الإسلام بـ«مفهوم التسخير».

والعجيب أن فى الوقت الذى تعتبر فيه الفلسفة وجود الكون من أهم قضاياها، وتطرح حوله أهم أسئلتها: لماذا وُجد الكون؟ لماذا ظهر الوجود بدلاً من أن يمتد العدم؟ لماذا نحن هنا؟... نجد أن المفهوم الأساسى الذى «يؤمن» به العلماء والفلاسفة الملاحدة وينطلقون منه هو «أن الكون موجود وعلينا فقط دراسته؟»، وأنه إذا كان لأى سلسلة بداية، فسلسلتهم تبدأ بوجود الكون وبالانفجار الكونى الأعظم.

وإذا كان من البديهيات العقلية أن هناك سببا لكل شيء حادث، فالملاحدة يرفضون تطبيق تلك القاعدة مع أهم الأشياء وهو وجود الكون ذاته! ومن سوء حظهم أن نهم الإنسان الذى لايشبع للمعرفة لن يدع هذا السؤال دون بحث.

إذا لم يكن هناك إله، فكيف ينظر الملاحدة إلى نشأة الكون؟ للإجابة عن هذا السؤال يقدم الملاحدة عددًا من الأطروحات، أهمها:

١- من أكثر ما يدعيه الملاحدة مثارًا للسخرية حول هذا الموضوع أن الكون قد شكل ذاته!، إن هذا الطرح يعارض نفسه، فمن المستحيلات المنطقية أن يمارس سبب ما تأثيرًا قبل أن يوجَد!.

٢- يُرجع ملاحدة آخرون نشأة الكون إلى قوانين الطبيعة، ولا بأس عندنا من قبول هذا الطرح بشرط نسبته إلى الإله كسبب أول.

ولتوضيح ذلك نضرب مثالين: تستطيع قوانين نيوتن للحركة

أن تصف مسار كرة البلياردو، لكن عصا البلياردو التى يدفعها اللاعب هى التى تحرك الكرة، إن القوانين تحتاج إلى موجود تؤثر فيه قوة فى مكان ما وزمان ما، وبدون هذه العناصر الأربعة (المادة - الطاقة - المكان - الزمان) لا تستطيع القوانين أن تعمل، بل أن تكون هناك قوانين.

تأمل كذلك أبسط القوانين الرياضية، ١ + ١ = ٢، إن هذا القانون غير قادر على إيجاد أى شيء، ولا يستطيع أن يضيف إلى رصيدى فى البنك! أما إذا وضعت ألفًا من الجنيهات فى البنك وبعد أسبوع وضعت ألفًا أخرى، عندها سيخبرنى هذا القانون أن رصيدى صار ألفين من الجنيهات، أما بدون ما قمتُ أنا به سيظل رصيدى صفرًا.

ومن ثم، فإن ادعاء أن قوانين الطبيعة قد أوجدت الكون هو «خيال»، أما أن أصف ذلك بأنه علم فهذا «احتيال رخيص»، إن النظريات والقوانين تصف مسار الأمور بدقة، لكنها لا تُخرج شيئًا للوجود.

٣- يقول الملاحدة للمتدينين: أنتم تَدَّعون ضرورة وجود سبب أول لا سبب له وراء نشأة الكون، وتَدَّعون أن الإله هو ذلك السبب الأول، لم لا يكون السبب الأول للوجود هو «الطبيعة»؟.

لهؤلاء نقول: تعالوا نتفكر فى الصفات التى ينبغى أن تتوفر فى السبب الأول، ثم نحكم إن كانت الطبيعة تصلح لأن تكون هذا السبب.

ذكرنا فى بداية الفصل أن للكون بداية، ومع تلك البداية ولدت الطاقة والمادة والمكان والزمان. أى أن لهذه العناصر الأربعة بداية، وهذه العناصر هى التى تمثل الطبيعة، أى أن للطبيعة بداية، أى أنها حادثة وليست قديمة، إذًا لا يمكن أن تكون هى السبب الأول، بل إنها تحتاج لسبب.

وإذا أردنـا أن نفصل ذلك، نقول إن السـبب الأول ينبغى أ
يكون سابقًا على الزمان (أزلي) ولا يحده المكان وليس بطاق
ولا مادة، لأنه هو الذى أنشـأ الزمان والمكان والطاقة والمادة
كما ينبغى أن يكون قادرًا على اتخاذ القرارات حتى يقطع العد
ويبدأ الوجود، كذلك ينبغى أن يكون مطلق القدرة حتى يكو
قادرًا على خلق الوجود من عدم، وأن يكون مطلق المعرفة حتى
يبنى الكون والحياة بما هما عليه من تعقيد وتناسق.

إن هذا هو الحد الأدنى من الصفات التى ينبغى أن تتوافر ف
السبب الأول موجد الكون، ولا شك أنها لا تتوافر فى الطبيعة
ولا تتوافر إلا فى الإله الخالق الحكيم القادر القديم الأزلى.

٤- يطلق العلماء على ملاءمة الكون وكوكب الأرض لنشأ
الحيـاة وظهور الإنسـان اصطلاح «المبدأ البشـري»، ويفسـ
المتدينـون هـذه الملاءمـة بأن الإلـه بحكمته وقدرتـه قد أعا
مسرح الوجود ليكون جاهزًا لهذا الحدث، ولكن، كيف يفسـ
الملاحدة هذه الملاءمة؟

لتفسير ذلك، يطرح الملاحدة فرضية تثير السخرية إلى حا
بعيد، وهى «فرضية الأكوان المتعددة»، وتعنى احتمالية وجو
مـا لا نهاية لـه عددًا من الأكـوان، بكل منها ظـروف فيزيائيا
مختلفة تصلح لقيام كون، ومن ثم يكون أمامنا عدد لا متناه مر
الأكوان بعدد الظروف الفيزيائية المحتملة، وبالتالى لن تكو
هنـاك صعوبة فى تصور وجود كـون ككوننا تتوافر فيه ظروف
نشأة الكون والإنسان!.

إن فرضية الأكوان المتعددة تُعد من الخيال العلمى وليسـ
مـن الفيزياء، إذ مـن المسـتحيل التأكد منهـا علميًا، كذلك
فالقـول بالإلـه الذى بنى كونـنـا على هذه الهيئـة أكثر منطقيا
وأقـرب احتماليـة من القـول بوجود مليـارات المليـارات مر

الأكوان التى يلائم أحدها (بالصدفة) نشأة الحياة، وإذا حاولنا أن نساير هؤلاء المخبولين القائلين بالأكوان المتعددة، سنظل فى حاجة لتفسـير كيفية نشـأة هـذه الأكوان، وتفسـير لماذا لاءمـت ظروف إحداها متطلبات نشـأة الحياة. وسيظل وجود الإله مطلوبًا للقيام بالمهمتين.

● قال لى أحد الملاحدة: إذا كنت مصممًا علىٍ أن السبب الأول للوجـود هو الإلـه الأزلى القديم، فكـن صادقا معى ومع نفسـك فـى الإجابة عن هذا السـؤال: هل تسـتطيع أن تتصور موجودًا قديمًا أزليًا لا موجد له؟ أجبته: لا، لا أحد يستطيع أن «يتصور» موجودًا لا موجد له، انفرجت أسارير مناظرى.

عـاد مناظرى للعبوس بعد أن أضفت قائلاً: لقد جُبِلَت عقولنـا علـى أن لـكل موجود «حـادث» موجِد، ولا تسـتطيع أن نخـرج عـن هذه القاعـدة، لذلـك لا أحد يقـدر على تصور موجـود لا موجـد لـه، ولكـن إذا كان وراء كل موجود حادث موجِـد فإن «العقل» يحتم الوصول إلى سـبب أول لا سـبب له لكل الموجودات، إذ يسـتحيل التسلسل فى الأسباب إلى ما لا نهاية، ومن ثم يصبح السـؤال عن سـبب السبب الأول (الذى هو الإله القديم) سؤال غبى.

وأضفـت: وإذا كنا لا نسـتطيع «تصور» الإله الذى لا موجد له، فإن الإقرار العقلى بهذا الإله يصبح أمرًا لا مفر منه منطقيًا، والإقـرار العقلـى بمفهوم ما مع العجز عن تصـوره ليس بالأمر المستحيل، بل إنه يقابلنا فى حقائق العلم! فالفيزياء الحديثة (الكوانتم) تخبرنا أن الجسيمات تحت الذرية يمكن أن توجَد فى أكثر من موضع فى وقت واحـد!!! إنها حقيقة علمية وإن كان يستحيل تصورها.

القرآن الكريم وخلق السماوات والأرض(٢١):

تنزل القرآن الكريم فى الوقت الذى ساد فيه الاعتقاد الخاطئ بأن الكون الذى نحيا فيه قديم أزلى وسيبقى إلى الأبد، وأنه كون لا نهائى، أى لا تحده حدود، وأنه كون ساكن، ثابت فى مكانه، لا يتغير، وأن السماء تدور بنجومها الثابتة كقطعة واحدة حول الأرض، وأن الكون نشأ من العناصر الأربعة: التراب والماء والهواء والنار، وغير ذلك من الخرافات والأساطير.

فى هذا الوقت جاء القرآن الكريم مؤكدًا أن الكون مخلوق له بداية، وستكون له فى يوم من الأيام نهاية، ومؤكدًا أن جميع أجرام السماء فى حركة دائبة وجَرْى مستمر، وأن السماء(٢٢) ذاتها فى توسع دائب إلى أجل مسمى، كما أن السماوات والأرض كانتا فى الأصل جُرمًا واحدًا ففتقهما الله تعالى فتحولت مادة هذا الجرم الأول إلى الدخان، الذى خُلقت منه الأرض والسماء.

كذلك فإن هذا الكون سوف يُطوى ليعود كهيئته الأولى جُرمًا واحدًا مُفرَدًا ينفتق مرة أخرى إلى غُلالة من الدخان تُخلق منها أرض غير أرضنا الحالية، وسماوات غير السماوات التى تظلنا فى حياتنا الدنيا، وهنا تتوقف رحلة الحياة الأولى وتبدأ رحلة الآخرة.

وقد بين ربنا (تبارك وتعالى) عملية خلق السماوات والأرض وإفنائهما وإعادة خلقهما فى صياغة كلية شاملة منذ أكثر من ألف

(٢١) بتلخيص وتصرف عن موسوعة «تفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم»، للأستاذ الدكتور زغلول النجار.

(٢٢) لفظ «سما» فى اللغة العربية يعنى «ارتفع»، لذلك فالسماء هى كل ما نراه يعلو كوكب الأرض، وهى فى الحقيقة ليست إلا انعكاسات الضوء فى الغلاف الجوى للأرض، أى أنها وجود مُدرَك وليست كرة مادية تحيط بالأرض كما كان الأقدمون يتصورون، لذلك يستخدم القرآن الكريم لفظ السماء للإشارة إلى الكون، وإن كانت تبدو لنا كوجود مُدرَك يعلو الأرض.

وأربعمائة سنة، وذلك فى خمس آيات من آى القرآن الكريم على النحو التالى:

١- ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾

(الذاريات: ٤٧).

تشير الآية إلى تمدد الكون منذ اللحظة الأولى لخلقه، وإلى أن يشاء الله.

٢- ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾

(الأنبياء: ٣٠).

تشير الآية إلى:

* ابتداء خلق الكون من جرم أولى واحد (مرحلة الرتق(٢٣) الأول).
* فتق هذا الجرم الأولى أى انفجاره (مرحلة الفتق(٢٤) الأول).

٣- ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾

(فصلت: ١١).

تشير الآية إلى:

* تَحوُّل الجرم الأولى عند فتقه إلى الدخان (مرحلة الدخان).
* خلق كل من الأرض والسماوات من الدخان الكونى (مرحلة الإتيان بكل من الأرض والسماء).

(٢٣) الرتق فى اللغة عكس الفتق؛ لأن الرتق هو الضم والالتحام والالتئام سواء كان ذلك طبيعيًا أو صناعيًا، يقال رتقت الشيء فارتتق أى فالتأم والتحم.

(٢٤) الفتق: هو الفصل والشق والانشطار.

٤- ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٤).

تشير الآية إلى:

* حتمية عودة الكون بكل ما فيه ومن فيه إلى جرم ابتدائي واحد مشابه للجرم الأولى الذى ابتدأ منه الخلق (مرحلة الرتق الثانى أو طى السماء أو الانسحاق الشديد للكون).

* حتمية فتق هذا الجرم الثانى أى انفجاره (مرحلة الفتق للجرم الثاني).

* حتمية تحول الجرم الثانى بعد فتقه إلى غلالة من الدخان الكونى.

٥- ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(إبراهيم: ٤٨).

تشير الآية إلى:

* إعادة خلق أرض غير أرضنا الحالية وسماوات غير السماوات التى تظللنا اليوم، وبداية رحلة الآخرة(٢٥).

هذه الحقائق الكونية الكبرى فى خلق السماوات والأرض، لم يستطع الإنسان الوصول إلى إدراك شيء منها إلا فى منتصف القرن العشرين أو بعد ذلك، حين تبلورت «نظرية الانفجار الأعظم»، وهذه النظرية هى الأكثر قبولاً عند علماء الفلك وعلماء الفيزياء الفلكية والنظرية فى تفسير نشأة الكون.

(٢٥) قد يحدث ذلك عقب انسحاق كوننا الحالي، أو عقب دورات من الانسحاق والانفجار، لكن فى النهاية ستبدأ رحلة الآخرة.

والقرآن الكريم هنا يعطى الصورة الكلية الجامعة لهذا الحدث الكونى العظيم، ويترك التفاصيل لجهود علماء الفلك والفيزياء النظرية والمفكرين الذين يتفكرون فى خلق السماوات والأرض، والذين تجمعت ملاحظاتهم العلمية الدقيقة فى صفحة السماء لتؤكد فى منتصف القرن العشرين صدق ما قد أنزله الله تعالى فى آخر كتبه، وعلى خاتم أنبيائه ورسله (عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم) من قبل ألف وأربعمائة من السنين، هذا السبق القرآنى الذى تتوافق معه تمامًا نظرية الانفجار الكونى الأعظم.

وسبحان ربى العلى الأعلى الوهاب.

الحياة بين الإله والإلحاد

الحياة ظاهرة شديدة التعقيد، حتى إن بعض تعريفاتها يشغل صفحة كاملة دون الإلمام بكل سماتها، ووحدة الحياة هى الخلية الحية التى ظهرت لأول مرة على كوكب الأرض فى كمالها وتمامها منذ قرابة ٣,٧ مليار سنة.

والخلية الحية كائن شديد التركيب، تفوق فى تعقيدها مدينة ضخمة كمدينة القاهرة! وتقوم الكائنات وحيدة الخلية (كالبكتريا) بجميع الوظائف البيولوجية التى يقوم بها جسم الإنسان بخلاياه المجتمعة والتى تبلغ مائة ألف مليار خلية، فالخلية البكتيرية تتكاثر وتتحرك وتغتذى وتهضم وتُخرج وتتنفس و... كالإنسان تمامًا.

وتتكون الخلية البكتيرية الواحدة من مائة مليار ذرة، أما الخلية من جسم الإنسان فتتكون من عشرة آلاف مليار ذرة، فسبحان الله الذى نظم هذه المليارات من الذرات بأسلوب مختلف من خلية لأخرى لتتناسب بنيتها مع الوظيفة التى تقوم بها.

وبالإضافة «للوظائف البيولوجية» التى ذكرناها، تتميز الخلية الحيـة بعدد من «السـمات الوجودية»، أهمهـا أنها موجود ذكى، يعتمد على معالجة كم هائل من المعلومات المسـجلة فى الشفرة الوراثيـة الموجودة فى نـواة الخلية، كذلك فالخليـة الحية ذاتية التحكم فى وظائفها وتعمل كوحدة واحدة من أجل تحقيق أهداف متأصلة فى بنيتها.

وتُحمل الشـفرة الوراثية للإنسـان على سلاسل جزئيات الدنا DNA، التى تُكوِّن كروموسومات الخلية لولبية الشكل، والتى تبلغ ٢٣ زوجًا من الكروموسومات فى نواة كل خلية، ويبلغ طول كروموسـومات كل خليـة ٢,٠٤ متر، بذلك يبلغ طول سلاسـل جزيئات الدنا فى خلايا جسـم الإنسـان الواحد قرابة ٢٠٤ مليار كيلومتـر، أى أنهـا تقطع المسـافة من الأرض إلى الشـمس قرابة ١٣٦٥ مرة، وقد تؤدى إصابة أى حلقة من حلقات هذه السلسـلة (والتـى تبلـغ ٧ مليارات حلقة فـى الخلية الواحـدة) بعطب إلى موت الجنين أو إصابته بمرض خِلْقى خطير.

سـبحان الله العظيم!... ما أشـد تعقيد الخلية الحية، وما أشد تعقيد ظاهرة الحياة.

نظرة الماديين إلى الحياة:

يصر الماديـون على النظر إلى الحياة نظـرة مادية، ويرجعون نشـأتها إلى الصدفة، وينطلق الماديون فـى نظرتهم من «المنهج الاختزالـي» الـذى يحلـل الكائنات الحيـة إلى مكوناتهـا الأولية (أعضاء - أنسجة - خلايا - جزيئات - ذرات - جسيمات تحت ذريـة) وفى النهاية نصل إلـى مجالات الطاقة العشـوائية، عندها يقول الماديون؛ لم نجد إلا مادة تتفكك إلى طاقة عشوائية.

نقول للملاحدة:

* عندمـا حَلَّلتم الخليـة إلى مكوناتها تلاشـت ظاهرة الحياة تمامًا، وصرتم تتعاملون مع مكونات خلية ميتة.

* كيف أمكن لمجالات الطاقة أن تتشـكل لتخرج لنا الكائن الحى.

* إن مكونـات الـذرة (الإلكترونـات - البروتونـات - النيوترونـات) تُنتـج بخلطـة معينـة حفنـة مـن الرمـال، ونفس المكونات أنتجت خلايا مخ أينشتين! إنها نفس مجالات الطاقة.

* كيف تنتج مجالات الطاقة العشوائية تغريد الطيور وخبرتها فى بناء الأعشاش وتشكيلاتها الجميلة التى تتخذها أثناء الهجرة؟ وإذا مات الطائر لَم تختفى هذه الظواهر مع فقدان الحياة، بالرغم من أن نفس مجالات الطاقة تظل موجودة؟

أسئلة كَأْدَاء يناطحها الماديون فتُبلى رءوسَهم.

الحياة منظومة ذكية:

لا شك أن أهم ما يميز الخلية الحية عن الموجودات غير الحية (كالمـاء والعصـا والقميص) أنها موجود ذكـى يمارس عددًا من النشاطات التى تمارسـها الكائنات الذكية، ولعل هذه السـمة هى الصخرة التى تتكسـر عليها تفسـيرات الماديين لظاهرة الحياة، وتدفـع المنصفيـن إلى الإقـرار بحتميـة أن يكون مصـدر الحياة الذكيـة إله خالـق ذكى، ومن أجل أن ندرك حجية هذا الاسـتدلال علينا أن ندرس الحياة كمنظومة ذكية:

المكون المعلوماتى للحياة:

إذا نظـرت إلـى محـرك إحدى السـيارات الفخمـة وجدت أنه يتكون من حديد ولدائن تبلغ قيمتها حوالى مائة جنيه، ومع ذلك يبـاع المحرك بقرابة مائة ألف جنيـه، يُرجع الفاهمون ذلك الأمر إلـى ما يطلقون عليه «سـر الصنعـة» أو **The know how** أى المكون المعلوماتى، ويشـيرون بذلك إلى كمية المعلومات التى استخدمت لصناعة المحرك، ولتوضيح المقصود بذلك، نبين أن

العلم ينظر إلى أى مُنتج باعتبار أنه يشتمل على ثلاثة مكونات :

المكون المادي : وهو الخامات التى يتكون منها المُنتَج .

مكون الطاقة : وهـو الطاقة التى اسـتخدمت لصناعـة المنتَج والمطلوبة لتشغيله .

المكون المعلوماتى : ويشـمل المعلومـات الضرورية لصناعة المنتَج .

وإذا نظرنا إلى دولة متفوقة كاليابان ، وجدناها فقيرة فى المكون المـادى ومكون الطاقة (حتى إنها تسـتورد جميع احتياجاتها من المواد الخام والوقود) لكنها غنيـة فى المكون المعرفى ، فَأَهَلَها ذلك لأن تحتل وضعها المتميز حضاريًا واقتصاديًا .

وإذا نظرنا إلى الدراسـات التقليدية لنشـأة الحيـاة ، وجدناها تهتم بدراسـة الظـروف المناخيـة التى كانت سـائدة فى كوكب الأرض وقـت ظهور الخلية الحية ، لمعرفة إذا كانت تلك الظروف تسـمح بتكون المركبـات الكيميائية التى تتكـون منها الخلية ، وأهمهـا البروتينات والدنا ، لذلـك كان البيولوجيون يعتبرون أن «الحياة ظاهرة كيميائية» .

ومنذ نهاية القرن العشرين تغيرت الصورة ، وصار البيولوجيون يعتبـرون أن «الحيـاة ظاهـرة معلوماتيـة» ، ويهتمـون بالبحث عن مصدر المعلومات التى شكلت مكونات الخلية ، وأيضًا المعلومات التى تحملها جينات الخلية والتى تُعرف بالشفرة الوراثية .

وبذلك يصبح التحدىَ المسـتحيل الذى يواجه الملاحدة هو : كيـف اسـتطاعت الطبيعة ، دون توجيـه ذكى (من إلـه) أن توفر المعلومات الهائلة المطلوبة لنشأة الحياة ولتنظيمها ، والتى تبلغ ملايين البيتات Bits ، فى الوقت الذى أثبتت فيه الدراسات عجز الكمبيوتـر عن الحصول بالصدفة على مقولة لشكسـبير تحتوى على ٤٠٠ بت من المعلومات فقط ؟ ! .

الحياة ومعالجة المعلومات:

تُعتبر قدرة الخلية الحية على الاحتفاظ بالمعلومات ومعالجتها أهم نشاطات الخلية التى تعكس كونها منظومة ذكية .

وتسـتخدم الخليـة فـى الاحتفـاظ بالمعلومـات ونقلها نظام «الشـفرة» ، فللخليـة أبجديـة تتكون من ٤ حـروف (٤ مركبات كيميائية) تتراص فى نواتها بطرق مختلفة لتُدَوِّن الكم الهائل من معلومات الخلية ، ولا توجد لغة من لغات البشر تستخدم هذا العدد القليـل من الحـروف لتُعَبِّر عن هذا الكم الهائـل من المعلومات ، وتقوم حروف مشـابهة بنقل المعلومات من نواة الخلية إلى خارج النواة حيث تمارس مهامها ، إن آلية التشفير هذه تفوق أدق آليات التشـفير التى ابتكرها الإنسان ويستخدمها فى أحدث اختراعاته كالكمبيوتر ورسائل الهواتف المحمولة .

إن الشـفرة الوراثيـة للخليـة (الدنـا DNA) ليسـت فقـط مستودعًا للمعلومات ، بل تقوم بتوجيه بناء المركبات الكيميائية المطلوبة لوظيفة الخلية ، ثم تقوم بإخراج الشكل النهائى للكائن الحى ، وتسـمى هـذه المهمة بـ «عملية التشـكيل» ، وهى تشـبه تحويـل كلمـات نخطها على الورق نصف فيها بدقة هيئة إنسـان إلى إنسان حقيقى من لحم ودم ، وهذه العمليات الثلاث هى أساس ظاهرة الحياة .

الوحدة والغرضية والتحكم الذاتى:

وكمـا ذكرنـا بخصـوص معالجـة المعلومـات ، تُعتبـر هـذه النشاطات الثلاثة من دلالات الذكاء فى ظاهرة الحياة .

فالكائنات الحية التى تتكاثر تزاوجيًا تنشـأ من خلية واحدة ، وهـى البيضة المخصبـة ، التى تنقسـم إلى مليـارات الخلايا ، ثم تتمايـز كل مجموعـة مـن هـذه الخلايا لتشـكل عضـوًا محددًا ، وتعمـل هذه الأعضاء فى تناغم لتشـكل الكائـن المتكامل الذى

يشعر بأنه وحدة واحدة.

وللكائنات الحية غرض -هدف- متأصل في بنيتها وهو «المحافظة على وجودها»، كما أن لكل عضو من أعضاء الكائن غرض -وظيفة- يقوم به من أجل خدمة الغرض الأساسي للكائن.

وإذا كانت السيارة الأوتوماتيكية المزودة بكمبيوتر تحتاج إلى من يُصممها ويُصَنّعها، ثم إلى من يمدها بالطاقة ويشغلها ويحدد لها الوجهة ويقودها إليه، فإن الكائن الحي زوده مصممه عز وجل بالقدرة على التكاثر فلا يحتاج إلى من يُصنعه، كما أمده بالآلية اللازمة للحصول على الطاقة من الغذاء والأوكسجين، ووضع أهدافا متأصلة في بنيته لتوجهه لفعل وتحصيل ما فيه منفعته، كل ذلك دون احتياج لعون خارجي، وهذا هو المقصود بالتحكم الذاتي.

نشأة الحياة: عجز الصدفة والعشوائية:

يدعى الملاحدة أن جزيئات الحياة (البروتينات - الدنا DNA) قد تكونت بالصدفة والعشوائية، ويعتبرون أن ذلك تفسير كاف لنشأة الحياة!.

تعال نتأمل دور الصدفة والعشوائية في نشأة جزيء واحد من البروتينات: إذا نظرنا إلى جزيء الهيموجلوبين الذي يحمل الأوكسجين في كرات الدم الحمراء والمسئول عن لون الدم الأحمر، نجد أنه يتكون من ٤ سلاسل من الأحماض الأمينية، يبلغ مجموعها ٥٣٩ حمضًا أمينيًا هي تكرار لعشرين نوعًا من هذه الأحماض، وبحسبة رياضية بسيطة نجد أن عدد الترتيبات المحتملة التي يمكن أن يتراص بها الـ ٥٣٩ حمضا أمينيا يبلغ رقمًا مهولاً مقداره (١) وعلى يمينه ٦٢٠ صفراً، غير أن ترتيبًا واحدًا هو المطلوب كي يؤدى الجزيء وظيفته في نقل الأوكسجين في جسم الإنسان، مع ملاحظة أن وجود خطأ في

موضع حمض أميني واحد كفيل بأن يُنتج جزيئًا يعمل بطريقة معيبة خطيرة وقد لا يعمل على الإطلاق.

بعد تراص الأحماض الأمينية لتكوين السلاسل الأربع، تأتي أهم عملية في تخليق جزيء البروتين، وهي الهيئة التي تلتف بها هذه السلاسل، إنها عملية بالغة التعقيد، ولتوضيح مدى ذلك نقول إنا إذا وضعنا المعلومات المطلوبة للف سلسلة جزيء بروتيني صغير (يتكون من مائة حمض أميني مثلاً) في سوبر كمبيوتر ليقوم بهذه العملية بمحاولات عشوائية، فإنه سيستغرق حوالي (١) وأمامه ١٢٧ صفراً من السنوات! بينما يتم ذلك في الخلية الحية في جزء ضئيل من الثانية، ولو تمت هذه العملية على هيئة غير صحيحة لأمكن أن تُنتج سُمًّا قاتلاً.

لذلك فإن إمكان تكون جزيء بروتين بالصدفة (تحتاج الكائنات الحية مئات الآلاف من أنواع البروتينات) يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة عن مادة الكون كله، حتى يمكن للتوافقات العشوائية المثمرة أن تحدث، وتستغرق هذه المحاولات مدة أطول من عمر الكون بمليارات المرات، وستحتاج هذه المحاولات لمسرح تتم فيه أكبر من حجم الكون بمليارات المرات أيضًا.

سبحان الله... بالرغم من ذلك ما زال الماديون يصرون على أن الحياة قد نشأت بالصدفة والعشوائية!!.

معضلة البيضة والدجاجة:

من أكثر المواقف إحراجًا للملاحدة عند تفسير ظهور الحياة عشوائيًا هو العلاقة بين جزيئات البروتينات (أهم مكونات الخلية) وجزيئات الدنا DNA (التي تشكل الشفرة الوراثية)، فبناء جزيئات البروتين يحتاج إلى وجود الشفرة الوراثية (الدنا)، وفي نفس الوقت فإن عمل جزيء الدنا يحتاج إلى جزيئات

البروتينات (الإنزيمات).

إذًا فالبروتينات لا تنشأ دون الدنا، والدنا لا يعمل إلا بالبروتينات، كيف ينشأ نظامان مختلفان مستقلان عشوائيًا، فى الوقت الذى يحتاج كل منهما للآخر لوجوده ووظيفته؟ إنها معضلة البيضة والدجاجة، أيهما أولاً؟، لقد فشل كل ما قدمه الملاحدة من تفسيرات، ولم يبق إلا القول بأن الإله الخالق قد أوجد المركبين دون احتياج أحدهما للآخر.

هراء الملاحدة:

يلخص زعيم الملاحدة البيولوجى ريتشارد دوكنز رأى فصيله فى كيفية نشأة الحياة قائلاً:

«ثم حدثت المعجزة، وظهر الجزىء السحرى (يقصد الدنا DNA) فَدَبَّت الحياة فى المادة غير الحية»!!.

قد نوافق دوكنز على أن جزىء الدنا جزىء سحرى احتاج إلى معجزة ليخرج إلى الوجود، لكننا دون شك نرفض أن تكون العشوائية والصدفة هى التى أَجْرَت هذه المعجزة، فالمعجزات لا يقوم بها إلا إله قادر على الإيجاد من عدم وعلى خرق الأسباب وعلى تحويل الجوهر إلى جوهر آخر، لا إله إلا هو.

ومن المناسب هنا أن نسجل موقف العالم فرانسس كريك (الحاصل على جائزة نوبل لمشاركته فى التوصل إلى بنية جزىء الدنا DNA وطريقة أدائه لوظيفته)، يرى كريك أن الحياة إما نشأت بمعجزة إلهية أو أنها جاءت إلى الأرض من كوكب آخر!، وبالرغم من أن الاحتمال الأخير يثير الدهشة، لكن كريك رَجَّحَه واضطر للقول به لتيقنه أن ظروف كوكب الأرض لا تسمح بنشأة الحياة تلقائيًا، ولا شك أن عاقلاً لن يقبل احتمال ورود الحياة من كوكب آخر، فهذا الطرح لا يفسر لنا كيف نشأت الحياة هناك، كل ما فعله هو أنه رَحَّل المشكلة إلى حيث لا نستطيع دراستها.

المحصلة:

أثبتنا فيما سبق أن الحياة منظومة ذكية، تقوم على مُكَوِّن معلوماتى هائل يتم معالجته بآلية تشفير شديدة التعقيد، وتختلف جذريًا عن المادة غير الحية بسماتها الذكية، وأهمها الوحدة والغرضية والتحكم الذاتى، كما تتفرد الكائنات الحية بممارسة عدد من النشاطات البيولوجية، كالتكاثر والحركة والاغتذاء والإخراج والإحساس و...

كما أثبتنا أن هذه السمات وهذه النشاطات ما كانت لتنشأ تلقائيًا وعشوائيًا كما يدعى الملاحدة، فهى شديدة التعقيد والتناسق وتتسم جميعها بالذكاء وتحتاج إلى كَم هائل من المعلومات، وهذه أمور فوق طاقة الطبيعة المادية، وإذا كان «فاقد الشىء لا يعطيه»، فإن خلق الحياة الذكية يحتاج إلى الخالق الحى الذكى... سبحانه وتعالى.

التطور البيولوجي بين الإله والإلحاد

تُعتبر نظرية التطور للبيولوجى الكبير تشارلس دارون أكثر القضايا إثارة للجدل بين الملاحدة والمتدينين، فمنذ أن طرح دارون نظريته عام ١٨٥٩م فى كتابيه «أصل الأنواع» ثم «أصل الإنسان» والصراع لا يهدأ بين الطرفين، ذلك بالرغم من أن دارون نفسه كان مؤمنًا بالإله!.

ففى سيرته الذاتية، شرح دارون عقيدته قائلاً: «من الصعب جدًا، بل من المستحيل، أن يكون كونًا هائلاً ككوننا، وبه مخلوق يتمتع بقدراتنا الإنسانية الهائلة، قد نشأ فى البداية بمحض الصدفة العمياء، أو لأن الحاجة أم الاختراع، وعندما أبحث حولى عن السبب الأول وراء هذا الوجود، أجدنى مدفوعًا إلى القول بمصمم ذكى، ومن ثَمَّ فإنى أؤمن بوجود الإله».

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا هذا الضجيج حول النظرية؟

مـن أجل أن نجيب عن هذا السـؤال، ينبغـي أن ندرك أولاً ماذا تقول النظرية:

الداروينية غير مفهوم التطور:

يؤكـد داروين أن الحيـاة بـدأت بخليـة منفـردة، أوجدها الإله الخالـق، ثم تطـورت الأجيال المتتابعة من هذه الخلايا، فنشـأت منهـا الكائنات عديدة الخلايا وتميزت إلى كائنات نباتية وأخرى حيوانية، فـى البداية، لم يكن للكائنـات الحيوانية عمود فقارى (لا فقاريـات)، ثـم تطـور بعضها إلـى الكائنات الفقاريـة، التى بدأت بالأسـماك، ثـم البرمائيـات (كالضفادع)، ثـم الزواحف (كالديناصورات والثعابين)، وتطورت بعض الزواحف إلى الطيور والثدييـات، وظلت الثدييات تتطور حتى وصلنا إلى الرئيسـيات التى منها القِرَدة، ويأتى على رأسها الشمبانزى ثم الإنسان.

وترى النظرية أن الشـمبانزى يجمعه بالإنسان سلف مشترك، فمنـذ قرابـة ثمانيـة ملايين عـام كان هنـاك كائن مـن الثدييات المتقدمـة تطـورت بعض أفراده إلـى الشـمبانزى، واعترت أفراد أخـرى منه تغيـرات جذرية طورتها إلى الإنسـان، والنظرية بذلك تقول إن قردة الشمبانزى ليسوا أسلافنا لكنهم أبناء عمومتنا.

ويمكـن اعتبار أن نظريـة داروين (الداروينية) تتكون من ثلاثة عناصر:

أ- نشأت جميع الكائنات الحية - شاملة الإنسان - تطورًا من الخلية الحية الأولى، وهذا ما يعرف «بمفهوم التطور».

ب- يبـدأ تطور أى كائن بحدوث تغيرات فى شـفرته الوراثية تقربه تدريجيًا من الكائن التالى، وتحدث هذه الطفرات بالصدفة بشكل عشوائى، لذلك أطلق داروين عليها «الطفرات العشوائية».

ج- يقوم التكاثر بالمحافظة على الطفرات العشوائية المفيدة لبقاء الكائن، ويمررها إلى الكائن التالى، فتسـاعد على تطويره، أما الطفرات الضارة فلا يتم توارثها فتتلاشـى، وتُعرف هذه الآلية «بالانتخاب الطبيعي»، وقد أشار داروين إلى بقاء الصفات المفيدة باصطلاحه الشهير «البقاء للأصلح».

لذلك نقول إن نظرية داروين (الداروينية) هى:

«تطور الكائنـات الحية عن طريق الانتخـاب الطبيعى من بين طفرات عشوائية»

التطور الدارويني فى ميزان العلم:

وإذا أردنا أن نُقَيِّم مدى صحة العناصر الثلاثة التى تتكون منها الداروينية نقول:

أ- يعتبـر معظم البيولوجييـن أن «مفهوم التطور» من كائن إلى كائـن آخر حقيقة علمية، ومن ثم فهم يقولون بالأصل المشـترك لجميع الكائنات الحية.

وقـد تم الحصـول على أدلـة حـدوث التطور من خـلال أربعة علوم: علم الحفريات، وعلم الأجنة، وعلم التشريح المقارن بين الكائنـات، وعلـم البيولوجيا الجزيئية (الجينـات)، ويقدم علم الجينـات الأدلـة الأقوى على حـدوث التطور بما توصـل إليه من شواهد فى السنين الأخيرة.

ب- يُعتبر «الانتخاب الطبيعي» بمثابة قانون علمى، فلا شـك أن الكائنـات التـى تحمل صفات أفضـل هى القادرة علـى البقاء والتكاثر.

ج- أثبت العلم عجز «الطفرات العشوائية» عن إحداث التطور، فالبيولوجيـون يقـدرون أن ٩٩٪ مـن الطفـرات العشـوائية التى تحدث فى الشـفرة الوراثية تكون ضارة، بينما قد تكون ١٪ منها مفيـدة، وقد أجـرى الباحثون التجارب على ذبابـة الفاكهة وعلى البكتريـا القولونية فعجزوا عن الحصول على طفرة واحدة مفيدة خلال آلاف الأجيال التى اسـتكثروها، ويؤكد ذلك أنه يسـتحيل

لهـذه النسـبة الضئيلة جدًا مـن الطفرات المفيـدة أن توجه تطور الكائنـات الحية، خاصـة وأن أى تعديل فى الكائـن الحى يحتاج إلـى حـدوث العديد من التغيـرات فى وقت واحـد حتى تعمل فى تآزر وتوافق.

ممـا سـبق، نجـد أن العلمـاء يعتبـرون أن حـدوث «التطور» أمـر واقع، ويسـوقون علـى ذلك الأدلـة العلمية، أمـا الأمر الذى يتخاصمون فيه ولا يوافق عليه الكثيرون فهو أن تكون «الطفرات» التى يبـدأ بها التطور قد حدثت عشـوائيًا وبالصدفة، وهذا أمر لا يستطيع العلم أن يقدم عليه الأدلة.

التطور الداروينى فى ميزان الدين:

منذ أن طرح دارون نظريته، تُلاقى الداروينية اعتراضًا وهجومًا مـن معظـم رجال الديـن مـن كل الديانـات، ويرى هـؤلاء أن الله تعالـى قد خلـق كل نوع من الكائنـات على هيئته خلقًا مباشـرًا، ويُطلَق عليهم اسـم «الخلقويون»، ويتركز اعتراضهم فى نقطتين أساسيتين:

أولاً: القـول بأن الكائنـات الحية المختلفة تم تشـكيلها عن طريـق آليات تطورية مادية عشـوائية ينقل عمليـة الخلق من الإله الخالق إلى الطبيعة، وفى ذلك كفر صريح.

ثانيًا: يتعارض القول بخلق الإنسـان بالتطور من كائنات أدنى منـه مع فهم معظم رجال الدين لكتبهـم المقدسـة من أن الله تعالى قد خلق الإنسان (آدم عليه السلام) من طين خلقًا مباشرًا.

لقد أشـعل هذان المفهومان صراعًا شديدًا بين العلماء ورجال الديـن، فرجال الديـن يقذفون العلماء بالكفـر، ويرون أن نظرية دارون خاطئة، وحججهم فى ذلك مسـتقاة مـن فهمهم للنصوص المقدسـة، أما العلماء فيتهمون رجال الدين بالجهل بمستجدات العلـم، ويمتـد اتهامهم إلـى الكتب المقدسـة ذاتهـا، فينكرون مصدرهـا الإلهى، وقد مَثَّلَ هذا الصراع الباب الواسـع للإلحاد فى الغرب.

لم يقف الأمر عند ذلك، بل إن شـبابنا صار يسـمع من رجال الديـن آراءً غيـر التى يتلقاها فـى دور العلم، مما أوقـع الكثيرين منهم فى صراع نفسى، لم يجد بعضهم مخرجًا منه إلا بتبنى كلمة العلم وأيضًا تبنى الإلحاد.

هل من مخرج؟!

للخروج من هذا المأزق، طرح العديد من البيولوجيين مفهومًا يُعـرف «بالتطور الموجه»، وهو يقبل التطور ويرفض العشـوائية، ويتبنـى أن إلهًـا حكيمًـا قادرًا قـام بتوجيه عمليـة التطور، لذلك يطلقـون عليه اسـم «التطوير الإلهي»، ويُطلَق على معتنقيه اسـم «التطوريون»، أما من يؤمنون بعشـوائية التطور فيُطلق عليهم اسم «الدراونـة»، معنى ذلك أن كل الدراونـة تطوريون ولكن ليس كل التطوريين دراونة.

ونحـن نرى أنه إذا لم يقدم «الخلقويون» أدلة علمية قوية تنفى حـدوث التطور، فـإن فى القـول بالتطوير الإلهـى مخرجًا وجيهًا وصحيحًـا مـن وجهتـى النظـر العلمية والدينيـة، فالعلـم يثبت حدوث التطور، وفى نفس الوقت لا يستطيع تقديم الدليل على أن التغيرات الجينية شـديدة التعقيـد (الطفرات) التى حولت كائنًا لآخـر والتى تعجز عنها العشـوائية، لم تكن طفـرات موجهة من قبل إله حكيم قادر.

وبالنسـبة للديـن، فالقـول بالتطويـر الإلهى يحل المشـكلة والصـراع كذلـك، فالاعتـراض الأول الذى ينزع عن الإله مهمة الخلق سيتلاشـى، إذ إن التطوير الإلهى يحفظ للإله مهمة الخلق، فالله تعالى هو الخالق سـواء تم ذلك بأسـلوب الخلق المباشر أو بأسـلوب الخلق التطورى، وفى هذا المعنى يقول فرانسيس كولنز

(أحد أكبر علماء البيولوجيا فى العالم، وكان مديرًا لمشروع الجينوم البشرى العالمي) : «من الذى يحجر على الإله فى أن يستعمل آلية التطور فى الخلق ؟ !»، فالتطور آلية يستعملها الإله، تمامًا كما يستعمل آلية الخلق الخاص.

أما بالنسبة للاعتراض الثانى الخاص بمخالفة مفهوم التطور لما جاء فى التفاسير التراثية للقرآن الكريم عن خلق الإنسان (آدم عليه السلام) خلقًا خاصًا، فقد أشار العديد من كبار العلماء ورجال الدين إلى أن الثوابت القرآنية عن خلق الإنسان تدور حول ثلاث نقاط :

١ - الله تعالى هو الخالق للإنسان وللوجود كله.

٢ - خُلق الإنسان من مادة الأرض (تراب - طين - صلصال . . .).

٣ - خُلق الإنسان وجميع الكائنات الحية من الماء.

وعندما تعرض هؤلاء الكبار لمفهوم التطور كانت محصلة رأيهم أن جميع آيات خلق الإنسان فى القرآن الكريم من المتشابهات، وإذا كان المفسرون الأوائل قد فهموا منها (فى ضوء ما كان متاحًا وقتها من علم) الخلق الخاص، فإن الآيات القرآنية يمكن تأويلها (مع المحافظة على الثوابت) فى ضوء الخلق التطورى، إذا ثبت مفهوم التطور لدى العلماء المتخصصين.

ومن القائلين بهذا الرأى من المعاصرين الشيخ جمال الدين الأفغانى، والشيخ محمد عبده، والشيخ حسين الجسر، والأستاذ سيد قطب، والأستاذ خالد محمد خالد، والدكتور يوسف القرضاوى، وغيرهم.

ولا يقف الأمر عند استيعاب منهج الإسلام لمفهوم التطور البيولوجى، بل لقد قال به عدد كبير من العلماء والمفكرين والفلاسفة الإسلاميين قبل داروين بقرون، ومن هؤلاء ابن مسكويه، وابن سينا، والجاحظ، والبيرونى، والخازن، وإخوان الصفا، وابن

خلدون وغيرهم.

لقد توصَّل هؤلاء إلى «مفهوم التطور» من تأمل آيات القرآن الكريم وتأمل ما فى الكائنات الحية من آيات، وقد كان طرح هؤلاء لهذا المفهوم واضحًا قويًا مصحوبًا بالاستدلالات المقنعة، مما حدا العالم والكيميائى والفيلسوف والمؤرخ الأمريكى جون ويليام درابر[٢٦] (١٨١١ - ١٨٨٢م) المهتم بالتطور البيولوجى إلى الحديث عن «نظرية التطور المحمدية»[٢٧] التى سبقت نظرية داروين بأكثر من ألف عام، وقد طرح فهمه هذا فى كتابه «تاريخ الصراع بين الدين والعلم»[٢٨].

معنى هذا أننا لو تقبلنا مفهوم «التطوير الإلهي» لا نكون مقلدين للغرب على غير بصيرة، كما يعتقد المعارضون، بل يكون ذلك تجاوبًا مع مفهوم علمى له أصوله فى الفكر الإسلامى.

ويعترض البعض على تأويل آيات الخلق فى القرآن الكريم فى ضوء مفهوم التطور، خشية أن تتبدل نظرة العلم بخصوص التطور، فيؤثر ذلك فى نظر الناس إلى عصمة الآيات القرآنية. ويجيب على هؤلاء الدكتور عبد المعطى بيومى:[٢٩] (عميد كلية أصول الدين الأسبق) بما معناه أننا إذا أوَّلنا نصًا قرآنيًا فى ضوء حقائق العلم ونظرياته القوية ثم تغيرت المعارف، فسنقول اجتهدنا فى التأويل وأخطأنا، ويبقى النص المقدس على قداسته، ويضيف الدكتور بيومي ؛ إن هذا قد حدث من قبل فى التفاسير العلمية وأيضًا غير العلمية.

إن هذا الطرح الذى نقترحه لإزالة التضاد بين كلمة العلم

---

(٢٦) John William Draper.

(٢٧) Mohammedian Theory of Evolution.

(٢٨) History of Conflict Between Religion and Science.

(٢٩) فى تقديمه لكتاب «قضية الخلق» للدكتور حسن حامد عطية.

وكلمة الدين ليس قاصرًا على القرآن الكريم، بل سبقنا إليه رجال الدين المسيحى واليهود، ففى عام ١٩٩٦م أصدر بابا الفاتيكان بيانًا جاء فيه أن الكنيسة لا تعارض مفهوم التطور، طالما نقر بأن الإله الخالق هو الذى ينفخ الروح فى الجسد، كذلك قام الشُرَّاح المعاصرون لسفر التكوين من التوراة (وعلى رأسهم ك. س. لويس) بشرح أحداث خلق الإنسان تبعًا لمفهوم التطور، وقد سبقنا هؤلاء إلى هذا الطرح بعد أن تفاقمت الموجات الإلحادية فى الغرب، وصارت تعصف بعقول الشباب هناك.

إن كل ما ذكرنا عن الخلق التطورى بالنسبة للإنسان خاص بالجسد، أما الملكات العقلية فسنرى فى الجزء المتبقى من الفصل أنها لم تنشأ تطورًا من كائنات أدنى، بل صاحبت نفخة الروح التى اختص بها الإنسان.

محصلة القول: ما لم يقدم العلم ما يثبت خطأ مفهوم التطور، فإن الرأى الراجح حتى الآن أن: جسم الإنسان خلق تطورى الإنسان ككل (جسم وعقل) خلق خاص. والله تعالى أعلى وأعلم،

جعلوا الداروينية ديانة لا إلهية:

أَفهم أن يتصور المتدينون أن القول بالتطور يعارض الدين، أما أن يتصور الدراونة أن القول بالتطور يُحَتِّم الإلحاد فذلك يحتاج إلى تأمل وتحليل وتفنيد، وقد عَبَّر سير جوليان هكسلى عن هذا الفهم بقوله: «لم يعد هناك احتياج ولا مكان فى المنظومة التطورية للحديث عن الإله، فالأرض لم تُخلق لكنها تطورت، وكذلك كل الحيوانات والنباتات التى تحيا عليها، حتى ظهر الإنسان بمخه وعقله وروحه»، بذلك أَحلَّ هكسلى الطبيعة محل الإله، ولم يبق لنا إلا الطبيعة والمادة لتفسير كل شىء؛ حتى الحياة والوعى البشرى والإبداع الإنسانى والمشاعر الروحية.

ويعتبر زعيم الملاحدة المعاصرين ريتشارد دوكنز أن نظرية التطور تمثل ثورة جذرية فى عالم الأفكار، فلم يعد هناك مبرر لأن تحيرنا أسئلة مثل: ما معنى الحياة؟ لماذا نحن هنا؟ ما حقيقة الإنسان؟ ولذلك يعلن «أن الفلسفة قد ماتت»، ويضيف دوكنز أن كل ما قالته الفلسفة منذ فجر التاريخ وحتى عام ١٨٥٩م (حين أصدر دارون كتابه) أصبح لا لزوم له، فقد أخبرنا دارون أن كل شىء فى الوجود عشوائى، وليس وراءه غائية، وعلينا أن نتوقف عن طرح مثل هذه الأسئلة!.

والمدهش أن مقولة دوكنز «إن الفلسفة قد ماتت» مليئة بالتناقض، فهى مقولة فلسفية! فإن كانت الفلسفة قد ماتت حقًا فالمقولة خاطئة، وإن كانت المقولة صحيحة فالفلسفة قد ماتت ولا ينبغى لدوكنز أن يطلق مقولات فلسفية!.

إن التشكيك فى الداروينية فى الغرب يفتح عليك طاقة من جهنم لا يفتحها أى سؤال علمى آخر، ويقول دوكنز: إذا قابلت شخصًا لا يؤمن بالتطور فلا شك أنك أمام إنسان جاهل غبى أو مجنون لا يعى ما يقول، ولا أريد أن أقول إنسان شرير مؤذ! ويضيف دوكنز لا ينبغى أن نشكك فى التطور إطلاقًا!!،

ونحن نتساءل: لقد شكك العلماء فى نظريات نيوتن وأينشتين، وشككوا فى ثوابت العلم مثل سرعة الضوء، فالشك هو الباب الواسع لتقدم العلم، بل إن كل العلوم تقدمت من خلال فتح الباب كل فترة لإعادة النظر فى مسلماتها، فلماذا هذا الهجوم الشرس؟ ولماذا هذه القداسة والتحريم مع التطور؟.

لماذا هذا التعصب الشرس؟

يقول مايكل روس (وهو فيلسوف تطورى منصف): «يكمن الصراع فى محاولة استغلال الكثيرين لنظرية التطور لنفى وجود الإله، لقد صار التطور بالنسبة لأنصاره ديانة لا إلهية»، ويؤصل

هذا المعنى فيلسوف العلوم الأشهر كارل بوبر قائلاً: «حتى النظريات العلمية يمكن أن تصبح موضة، يمكن أن تحل محل الدين، يمكن أن تصبح مُسَلَّمة غير قابلة للنقاش، وهذا ما حدث مع التطور».

ويرى د. م. واتسون أستاذ علم البيولوجيا «لقد تم قبول التطور ليس لقوة الأدلة عليه، ولكن لأن البديل الآخر - وهو الإله الخالق - بديل غير مقبول بتاتًا عند العلماء»، لكن هل حقًا البديل الأخير غير مقبول عند العلماء؟ نعم، هو غير مقبول عند العلماء الماديين الذين يرفضون القول بالإله، لذلك وجد الملاحدة فى الداروينية فرصة عمرهم، فاستماتوا فى نشرها والدفاع عنها.

ويشرح دونالد ماكاى الخبير فى علوم المخ والأعصاب التسلسل الذى أدى إلى وقوع تلك المصيبة، قائلاً: «بدأ مفهوم التطور كنظرية بيولوجية رأى فيها الكثيرون بديلاً عن الإله بالنسبة لعالَم الأحياء، ثم تطلعوا؛ ولماذا ليس فى باقى المجالات، ومن ثم بعد أن كان فرضية علمية أصبح مبدأ غيبى إلحادى يعم الكون كله، ويرفع عن الإنسان أى التزامات دينية، بذلك أصبحت «الداروينية» فلسفة ضد الدين، بل صارت كإله مجسد يعتبره مريدوه قوة حقيقية فى الكون.

لقد صار شغف الماديين بنظرية التطور نموذجًا فريدًا فى تاريخ العلم، فليس ثمة نظرية أخرى كان لها هذه الانعكاسات فى كل المجالات، لقد صرنا نسمع عن الفلسفة الداروينية، والاقتصاد الداروينى، والسياسة الداروينية، وعلم الاجتماع الداروينى، والمفاهيم الأخلاقية الداروينية... ياله من عبث، تصور محاولة استخلاص فلسفة مادية أو غير مادية أو إلهية من نظرية كنظريات نيوتن أو أينشتين أو الكوانتم!.

لا شك أن الداروينية مثلت زلزالاً فى الفكر البشرى فى الغرب، فلم يقتصر تأثيرها على تفسير نشأة الحياة وتطور الكائنات الحية، بل امتد إلى الدين وما ينبثق منه من قيم إنسانية، ومفاهيم الصواب والخطأ والعدالة والحق، والمشاعر الروحية، بل لقد تجاوزت المفاهيم الهدامة للتطور تأثيرها على الديانات، ووصلت إلى المفاهيم الإنسانية الأعمق، ومن هنا امتد تأثيرها ليشمل جميع جوانب حياتنا.

العقل بين الإله والإلحاد

يتلخص المنظور الدينى للعقل فى تَمَيز الإنسان بخصوصيتين محوريتين يختلف بهما عن باقى الكائنات، الخصوصية الأولى هى تمتع الإنسان بالقدرات العقلية وحرية الإرادة والمشاعر الروحية، والخصوصية الثانية هى نفخة الروح الغيبية التى اختص بها الإنسان، بالربط بين هاتين الخصوصيتين نستنتج أن النفخة الغيبية هى المسئولة عن القدرات العقلية.

أما المنظور المادى الداروينى فيُرجع قدرات الإنسان العقلية والروحية إلى التطور العشوائى الذى أدى إلى زيادة حجم وتعقيد الطبقة الخارجية لمخ الإنسان، والتى تُعرَف بالقشرة المخية. كما يعتبر الماديون أن المهام العقلية نشاط مباشر للمخ المادى، يقوم به كما تقوم الكلى بإفراز البول وكما يفرز الكبد الصفراء.

فأين تكمن الحقيقة بين الرؤيتين؟

نبدأ الإجابة عن هذا السؤال بأن نؤكد أن هناك فرقًا جذريًا بين المخ والعقل، فالفرق بينهما كالفرق بين نُطق الكلمة ومعنى الكلمة، فالنطق آلية من عالم الطبيعة المادية، إنه عبارة عن صوت مستمر تُخرجه الحنجرة على هيئة ذبذبات واهتزازات فى الهواء، ثم يُحدث الحلق واللسان والشفتان تقطعات فى هذا الصوت لتتشكل على هيئة حروف وكلمات، بذلك فإن نطق الكلمات عملية فيزيائية بشكل كامل، أما المعنى فشىء آخر، فقد يكون

تعبيرًا عن الحب أو إعلانًا للحرب أو أى مفهوم آخر، إن معنى الكلمات شىء خارج عن هذه الآليات المادية وعن تركيب الكون المادي!.

ومن أجل أن ندرك مدى تعقيد العمليات العقلية للإنسان، وتميزها عن مختلف الكائنات الأخرى، واستحالة أن تكون ناتجًا مباشرًا للتطور الداروينى، اخترنا أن تكون لنا وقفات مع أربعة من النشاطات العقلية للإنسان، تُظهر لنا أن ما يتمتع به العقل البشرى من قدرات لابد أن يكون وراءه إله حكيم خبير.

حرية الإرادة:

يقول الحق تعالى فى كتابه الحكيم:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

(الأحزاب: ٧٢).

وللأمانة الواردة فى الآية الكريمة عدد من المعانى منها الخلافة، ومنها العقل، ومنها حرية الإرادة، وكلها معانٍ متكاملة.

ويقول الحق تعالى:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾

(الشمس: ٧ - ١٠)

وتشير الآيات إلى أن النفس الإنسانية قد شُكلت لتمارس الخطأ والصواب، وأن العقل يقوم بعقلها وتوجيهها فى أى من الطريقين.

لذلك نعتقد أن حرية الإرادة وممارسة الاختيار هى أهم نشاطات الإنسان العقلية التى تميزه عما سواه من الكائنات، واستحق بها من الله تعالى منزلة الخلافة فى الأرض.

اكذوبة الحتمية الجينية والحتمية التربوية:

يُعتبر التوصل إلى بنية الشفرة الوراثية (الدنا DNA) فى خمسينيات القرن العشرين أحد أعظم الاكتشافات فى تاريخ علم البيولوجيا، عندها ظن العلماء أنهم توصلوا إلى سر الحياة، واعتبروا أن الشفرة الوراثية (= الكروموسومات = الجينات = الدنا) المسئولة عن بناء بروتينات الخلية مسئولة أيضًا عن سلوكياتنا وانفعالاتنا، أى أنك إذا ورثت جين نقص السعادة فستظل غير سعيد فى حياتك، وقد تبنى الملاحدة هذا المفهوم وروَّجوا أن جيناتنا هى التى تحدد مساراتنا ومصائرنا، أى أننا عبيد لجيناتنا.

كذلك تعتبر «المدرسة التربوية» أن الإنسان يُولَد بمخ كالصفحة البيضاء، وأن التربية والتنشئة هى التى تخط سطور هذه الصفحة، فتحدد لنا مفاهيمنا السلوكية وأخلاقنا التى توجه اختياراتنا، مما يعنى أن هناك «حتمية تربوية» مثلما هناك «حتمية جينية»، وقد سعد الملاحدة بتلك النظرة التى تنزع عن الإنسان حرية إرادته التى هى العمود المحورى فى المنظومة الدينية.

ومنذ العقد الأخير من القرن العشرين، تبدلت نظرة العلم لمفهوم حرية الإرادة الإنسانية، فقد أثبت العلم أن الظروف البيئية المحيطة بالإنسان وكذلك حالته المزاجية والنفسية وأيضًا رغباته وإرادته هى المنظِمة لنشاط الجينات، وبدلًا من المفهوم السائد بأن الجين الواحد يوجه حتمًا نشاطًا واحدًا، فقد ثبت أن البيئة والحالة النفسية والروحية للإنسان وإرادته توجه الجين لتبنى واحدًا من عدة آلاف من الأنشطة، بذلك تلاشت الحتمية الجينية وثبت أن الإنسان هو سيد مصيره.

وبالمثل أثبت العلم أن دور التربية، وإن كان ذا تأثير على السلوك الإنسانى، فإنه محدود. فالإنسان يولد بعدد من المفاهيم البديهية الأساسية وليس كصفحة بيضاء، كما يمارس قدرًا كبيرًا

من حرية الإرادة بالرغم من خلفيته التربوية.

وخير دليل على خطأ ادعاء الحتمية الجينية والتربوية، أن القضاء فى جميع دول العالم حتى الملحدة منها (كالصين والاتحاد السوفيتى القديم) يحاسب الجانى على جريمته باعتبار أنه مسئول عنها، ولم يدع أحد من عتاة الملاحدة فى الغرب إلى إسقاط العقوبة بدعوى الحتمية وانعدام الحرية الإنسانية!!.

اللغة:

تُعتبر اللغة أحد أهم النشاطات العقلية التى تميز الإنسان، ويستخدم الإنسان المعاصر اللغة بشكل تلقائى وببساطة شديدة، بحيث يبدو التفكير فى ماهيتها أمراً لا معنى له.

ويعتبر الداروينيون أن اللغة «نشأت تطورًا» عن الأصوات التى كانت أسلاف الإنسان تصدرها، والتى تشبه الأصوات التى تصدرها قردة الشمبانزى، ولكن منذ ستينيات القرن العشرين حدثت ثورة فى نظرة العلم للغات البشرية، فقد ثبت أن ملكة اللغة مبرمجة فطريًا (جينيًا) فى بنية أدمغتنا، وأن لغات العالم جميعها تشترك فى نفس القواعد العميقة التى تحكمها.

ويقف وراء هذه الثورة اللغوية ناعوم تشومسكى أكبر عالم لغويات فى القرن العشرين، فقد توصل إلى مفهومين جديدين فى علوم اللغويات، المفهوم الأول هو «الأجرومية (النظام) الخلاقة» وتعنى أن الطفل يولد ومخه مُعد لتكوين جمل صحيحة ذات معنى، فبمجرد تلقيه بعض المفردات وبعض العبارات يصبح قادرًا (بالقياس عليها) على تكوين ما لا نهاية له من الجمل صحيحة التركيب، والمفهوم الثانى هو الأجرومية (النظام) العالمية، وتعنى أن الجنس البشرى بأكمله يتعامل مع اللغة بطريقة متماثلة مع اختلاف أصوله ولغاته، ومن هذا التماثل أن الجملة تتركب من فعل وفاعل ومفعول به، وأن للأحداث زمنًا ماضيًا ومضارعًا

ومستقبلاً، وغيرها.

وقد حدا ذلك تشومسكى إلى رفض مفهوم تطور اللغة البشرية عن اللغات الأدنى للكائنات الأخرى، واعتبر أن اللغة ظاهرة جديدة تمامًا، «انبثقت» عندما وصل المخ البشرى إلى بنية بالغة التعقيد، و«الانبثاق» عند العلماء يحمل معنى «الخلق الجديد» الذى ينفى أن يكون الأمر قد حدث تطورًا، لذلك يصف تشومسكى نشأة اللغة بـ«الانفجار اللغوى الأعظم» تشبهًا بالانفجار الكونى الأعظم الذى أنشأ الكون من عدم، أى أن اللغة قد انبثقت من العدم وبُرمجت خلقيًا (جينيًا) فى أدمغتنا.

إن ما أثبته العلم من عجز التطور العشوائى عن إنشاء لغة الإنسان، وما أثبته كذلك من «انبثاق» اللغة الإنسانية كظاهرة جديدة تمامًا، لا يدع لنا إلا قولاً واحدًا لتفسير هذه النشأة، وهو الخلق الإلهى المباشر.

ويخبرنا الله تعالى فى قرآنه الكريم عن اكتساب الإنسان لخمس مهارات متتابعة تشكل جوهر اللغة الإنسانية، وهذه المهارات هى:

١- ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾

(البقرة: ٣١).

وتعليم آدم الأسماء يعنى أنه تعلم أن يطلق على كل شىء اسمًا، سواء كان شيئًا ماديًا كالماء والسماء، أو شيئًا غير مادى كالألم والضوء، أو معنى مجرداً كالحرية والسعادة، وهذا ما يُعرف فى علم اللغويات «بالترميز»، والقدرة على الترميز من أرقى الملكات العقلية الإنسانية التى لا يمارسها سواه، وتعتبر أحد الفروق الجوهرية بين الإنسان وغيره من الكائنات.

٢- ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾

(الرحمن: ٣، ٤).

والبيــان هو «صياغة الأفكار بتعقل وتبعًا لقواعد»، ويســتعمل الإنســان فى ذلك الرموز التى أطلقها على الأشـياء، كما يستعمل قواعد اللغة المُبرمجة فى عقله.

٣- ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٣).

و«النطــق» هــو المرحلــة التاليــة فى اللغــة المنطوقــة، ويقوم بهــا جهاز النطــق (الحنجـرة والبلعوم والفــم) والمراكز المخية المسئولة عن عمل هذا الجهاز.

٤- لا يكــون لهــذه المنظومــة فائــدة وقيمة بدون «مســتقبل للمعلومات المنطوقة»، لذلك خلق الله تعالى لنا السمع:

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨).

٥- وتكتمل منظومة اللغة الإنســانية بأن «يعقل» الإنســان ما يسمعه ويفهمه:

﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ (الروم: ٢٨).

وقد توصل الطب الحديث إلى أنواع من الخلل الذى يمكن أن يصيب هذه المنظومة، فمن إنســان لا يَعقل ما يســمعه، إلى آخر غيــر قادر على السـمع، إلى ثالث غير قادر علــى النطق، وآخر لا يسـتطيع صياغة أفكاره، إلى أخير ينظر إلى الشىء ولا يجد له فى عقله اسمًا، فقد عجز عن الترميز.

ســبحانك اللهــم، إذ وهبــت الإنســان هذه القــدرة على الـكلام، التــى هى بعضُ من صفاتك، فالقــرآن كلام الله الذى كَلَّمَ موسى تكليمًا.

الإدراك خارج الحس:

اعتدنــا أن نتحــدث عــن الحــواس الخمــس، وهــى الإبصــار والســمع واللمــس والتــذوق والشــم، ويســتخدم المــخ فى هذه الإدراكات الحســية (وكذلــك وظائــف المــخ الحركيــة) آليات كهربائية وكيميائية، ولكن هناك بعض النشــاطات الإدراكية التى لا تســتخدم هذه الحواس! وفى هذه النشــاطات يخترق الإنســان حاجــز الزمان والمكان، ومن ثم تعجز الآليــات الكهروكيميائية عن تفســيرها، ولا يبقى تفسير إلا القول بتواصل العقل الإنسانى مــع الــروح المــدرك الذى لا يحده زمــان ولا مكان، ومــن ثم فهى براهيــن يقدمها الله تعالى على عالم الغيب ومن ثم على الألوهية، وتُقَدم هذه البراهين حتى للملاحدة من البشر، ومن هذه الظواهر:

١- ظاهــرة الرؤيا المســبقة (ظاهــرة الشــعور بالألفة): إنها ظاهــرة معروفة فى علم النفس، بل لقد عشــناها كلنا أو معظمنا، وتعنى الرؤيا المسبقة أننا قد نمر فى حياتنا بموقف ما، ونستشعر أننــا قد عايشــناه من قبل بملابســاته وتفاصيله. وغالبًا ما نشــعر أننــا قد ســبق واطَّلَعْنَا فى أحــد أحلامنا على ما ســوف يحدث من تفاصيل.

وقد فســر الماديون هذا الأمر المعجز بأنه مجرد «تَوَهُّم»، كما قال آخرون بأن أحد نصفى المخ يدرك الحدث قبل النصف الآخر، وعندمــا يدرك النصف المتأخر الموقف نشــعر بالألفة، وقد ثبت خطأ هاتين الفرضيتين.

٢- ظاهرة الرؤيا الصادقة: فى هذه الظاهرة، تتحقق على أرض الواقع رؤًى رآها الشخص من قبل فى أحلامه بتفاصيلها.

كيف اخترق العقل فى ظاهرتى الرؤيا المسبقة والرؤيا الصادقة حاجز الزمان واطلع على غيب لم يحدث بعد؟!.

٣- ظاهرة التواصل عن بُعد: قد تشــعر الأم بقلق شــديد تجاه

ابنها المسافر عبر البحار، ثم تعرف فيما بعد أن حادثًا قد أصابه فى تلك اللحظة، وقد تُفكر فى شخص ما وبعدها بلحظة تسمع رنين الهاتف وإذا به يتحدث إليك، هل لديك تفسير لمثل هذه الأحداث التى يخترق فيها العقل حاجز المكان؟

٤- خبرات الذين اقتربوا من الموت: أُجريت العديد من الدراسات على أشخاص أصيبوا بنوبات قلبية وأُعلن وفاتهم إكلينيكيًا، لكنهم تماثلوا للشفاء وحكوا أمورًا عجيبة، ذكر بعضهم أنهم فارقوا أجسادهم وأخذوا يطوفون فوقها ويشاهدون الأطباء والممرضات وهم يقفون حولهم ويقومون بعلاجهم، ثم إذا بهم يدخلون فى أجسادهم مرة أخرى، وذكر بعضهم أنه شاهد نفقًا طويلاً مظلمًا وفى آخره دائرة من نور، وذكر أحدهم أنه رأى حذاءً لونه أحمر ملقى فوق سطح المستشفى، وقد ثبت صحة ذلك!.

لا شك أن ظواهر الإدراك خارج الحس التى يتم فيها خرق حاجز الزمان والمكان تضع العلم المادى فى موقف حرج، وتدفعنا لأن نستدعى لها تفسيرات غيبية غير مادية، بل وتجعلنا ننسب إلى العقل الإنسانى نشاطات تتجاوز كثيرًا ما اعتدنا عليه، وتتجاوز قدرة المخ المادى على القيام بها.

المشاعر الروحية والتسامى:

يتمسك الماديون بأن الديانات ابتداع إنسانى من أجل تحقيق فوائد مادية ومعرفية وشعورية، أهمها الشعور بالأمان لوجود قوة غيبية تدعمنا عند الضرورة، كما يعتبر الماديون أن ما نستشعره من طمأنينة نفسية وشعور بالتسامى والروحانية أوهام نفسية أو هلاوس مسئول عنها نشاط غير سوى لمراكزنا المخية.

وقد أصيب الماديون بخيبة أمل بعدما توصل العلم باستخدام أحدث تقنيات التصوير الإشعاعى للمخ أن ما يستشعره المتدينون

من طمأنينة ومشاعر روحية ومن وجود غيبى يستوى على عرشه إله حق ليست هلاوس وتوهمات، إنما هى إدراكات لوظائف مخية سوية. كما أثبتت تلك الدراسات أن «الوجود الغيبي» الذى يستشعره المتدينون أثناء عباداتهم لا يقل واقعية عن «الوجود المادي» الذى نعيش فيه! فكلاهما يتم استشعاره بآليات المخ الإدراكية. ومن ثم ينبغى أن يتوقف الماديون عن تقسيم العالم إلى «وجود مادى حقيقي» و«وجود غيبى غير مادى غير حقيقي»، فكلاهما من وجهة نظر المخ وجود حقيقي!!.

المخ / العقل والعبادات:

يطرح المتشككون تساؤلات حول جدوى العبادات فى الدين، ويقولون: ألا يكفى أن تكون هناك عقيدة فى الإله نؤمن بها، ثم نلتزم بمكارم الأخلاق وحسن معاملة الآخرين، وكفى، مثل كثير من ديانات الشرق الأقصى، كنت أُجيب هؤلاء قائلاً:

أولاً: العبادات دليل على طاعة المؤمن لأوامر الله تعالى، حتى وإن لم نعرف لها تفسيرًا عقلانيًا، مثل عدد الركعات فى كل صلاة، ولماذا يكون بعضها سرًا وبعضها جهرًا، ومن ثم فهى دليل على صدق العبودية لله تعالى.

ثانيًا: تحقق العبادات حسن الأخلاق والمعاملة التى يطالب بها هؤلاء المتشككون، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصوم ترقية للنفس وإشعار بمعاناة الفقراء، والزكاة تكافل اجتماعى...

وهاتان الفائدتان من أهم مقاصد الشريعة.

ثم أثبت العلم الحديث أن للعبادات وظائف عقلية فى منتهى الأهمية، منها:

ثالثًا: تثير العبادات مراكز الشعور فى المخ، فتتحول العقيدة من معلومات نظرية وطقوس إلى تجارب شعورية ذاتية، وهذه من

أهم وظائف العبادات.

رابعًا: للعقل رغبة فطرية فى تجسيد معتقداتنا وأفكارنا فى صورة حسية، فجاءت العبادات إشباعًا لهذه الرغبة، فالعبودية نجسدها فى السجود، والطاعة نجسدها فى الصوم، وهكذا.

خامسًا: تؤدى العبادات إلى إغلاق مراكز الشعور بالذات والشعور بالمحيط فى المخ، فيستشعر الإنسان قدرًا كبيرًا من التسامى، قد يصل إلى التواصل الحقيقى مع الوجود الغيبى.

كما أثبتت الأبحاث التى قام بها د. أندرو نيوبرج (مدير مركز الدراسات الروحية بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة) أن العبادات (بما فيها من صلاة وذكر وقراءة القرآن) تشتمل على الكثير من الممارسات التى حددها العلماء المتخصصون لتحسين صحتنا الجسدية والعقلية والنفسية، ولتحقيق السكينة والسمو الروحى، كذلك فإن التوجه إلى الله الرحمن الرحيم يؤدى إلى المزيد من السكينة والسمو، أما العبادة التى تركز على الخوف من الله ذى البطش الشديد، وكذلك التطرف الدينى فيؤديان إلى تلف الكثير من الدوائر العصبية المخية، ومن ثم إلى الشقاء النفسى والأمراض العضوية والشيخوخة المبكرة.

إن إدراك المؤمن لهذه الفوائد الجمة للعبادات تجعله فخورًا بالحرص على ممارسة طقوسه الدينية.

العقل والكمبيوتر:

فى محاولة أخيرة لإنقاذ اعتباراتهم المادية، يدعى الملاحدة أن أداء الكمبيوتر يشبه العقل البشرى، وذلك فى محاولة لإثبات أن العقل ظاهرة مادية أمكن محاكاتها بالكمبيوتر. وإذا كان الكمبيوتر يقوم بعمليات رياضية شديدة التعقيد بسرعة مذهلة مقارنة بقدرة الإنسان، فمن المدهش أن نعلم أن معامل ذكاء I. Q. الكمبيوتر يعادل (صفر Zero)! فليس له أى قدرة

على الإبداع أو التفكير، كذلك فإن من يدعى أن الكمبيوتر يشبه العقل البشرى كمن يدعى أن جهاز الراديو يعى ويفهم ما يذيع من برامج وأغنيات وموسيقي! إن الفرق الكبير هنا هو وعى العقل البشرى وإحساسه بما يفعل.

أثبتنا فى عرضنا السابق، أن نشأة النشاطات العقلية تتجاوز قدرات التطور الداروينى العشوائى، كما أن ممارستها تتجاوز قدرة الآلية الكهروكيميائية للمخ المادى، ولا تدع للمنصفين الموضوعيين مفرًا من الإقرار بدور غيبى فى النشاطات العقلية كما تخبرنا الديانات السماوية، وهو ما وصفه القرآن الكريم بقوله:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾

(الحجر: ٢٩).

القارئ الكريم...

استعرضنا فى هذا الفصل عددًا من القضايا والمفاهيم العلمية، وهى نشأة الكون وبنيته، وظهور الحياة ومعناها، والتطور البيولوجى، وأخيرًا نشأة العقل الإنسانى وقدراته، وقد ثبت لنا بيقين عجز المنظور الإلحادى عن تفسير هذه المفاهيم، وأن ما يقدمه الماديون لا يصمد أمام أى تحليل وتفنيد موضوعى.

وفى المقابل، يضعنا تأمل كل من هذه المفاهيم فى مواجهة حقيقة واحدة، وهى ألا تفسير لهذه الظواهر إلا الإيمان بالإله الحكيم القادر، وبذلك يصبح هذا الفصل مصداقا لقوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(فصلت: ٥٣).

الفصل الرابع
متتالية الألوهية - الدين - الأخلاق
بين الإله والإلحاد

تتكون المنظومة الإيمانية فى الإسلام من متتالية الألوهية والدين والأخلاق، فتبدأ بالإيمان بالله الذى أنزل الدين، وجعل من أساسياته استكمال المنظومة الأخلاقية للإنسان، ولتأصيل هذه المنظومة فى النفس البشرية استخدم الإسلام منهجًا يقوم على ثلاثة محاور:

الفطرة - الرسالة - العقل

ويخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى قد وضع فطرة الإيمان به فى النفس البشرية بغير واسطة من مَلك مُقرَّب أو نبى مُرسَل، فيقول تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾

(الأعراف: ١٧٢)

وهذه الفطرة تقف وراء شوق الإنسان وشغفه بالبحث عن الإله الحق والدين الحق.

كما يخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى لم يترك أمة دون أن يرسل لها من يُعَرِّفها دينها:

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾

(فاطر: ٢٤)

وقد نزلت الرسالات السماوية لتُعَرِّف الإنسان بربه وبدينه ولتذكره بالميثاق الذى وضعه الله تعالى فى فطرته.

ثم يجئ دور العقل، فنجد القرآن الكريم يكرر الدعوة إلى التعقل قرابة الخمسين مرة، ويؤكد فاعلية العقل بقوله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾

(فصلت: ٥٣)

ويبين القرآن الكريم أن من يُعطل مَلَكة العقل ويحرم نفسه عطاءها يصير كالأنعام أو أضل.

أما الفكر الإلحادى، فيرفض متتالية (الألوهية - الدين - الأخلاق) كمنظومة إيمانية، كما يرفض آليات (الفطرة - الرسالة - العقل) كمحاور إيمانية، فالفكر الإلحادى يرى أن الإنسان قد اكتسب الحس الإلهى والحس الدينى والحس الأخلاقى بنفس الطريقة التى اكتسب بها سماته الأخرى، وهى تحقيق المصلحة، أى أن الحاجة أم الاختراع، ويقصدون بذلك أن الإنسان قد بحث فى مواجهة قوى الطبيعة والشرور والآلام عن قوة كبرى يجد فيها الدعم ويستشعر الأمان، فاخترع على المستوى العقلى والنفسى مفهوم الألوهية ومفهوم الدين، وهذا ما قصده نيتشه بقوله: «إن الإنسان هو الذى خلق الله»، حاشاه.

ويرى الملاحدة كذلك أن الإنسان قد ابتكر المنظومة الأخلاقية لتكفل له تعاون الآخرين، ثم حافظ على هذه المنظومة حين اكتشف أننا إن لم نتمسك بها فسنهلك جميعًا، كما اكتشف أن تمسكه بها يحقق له حسن السيرة فى الحياة وخلود الذكر بعد الموت، ويضيف البعض، إن الإنسان يفعل الخير لذات الخير، وأنه يشعر بالرضا عند مقاومته الشر، وقد فات هؤلاء أن التطور الداروينى لا يعرف الخير والشر (كما سنبين فيما بعد)

الإنسان كائن دَيِّن بطبعه:

تصف عالمة الاجتماع الشهيرة المهتمة بالديانات كارين أرمسترونج الإنسان بأنه «كائن روحي»، وتقترح اسمًا آخر للجنس البشرى وهو «الإنسان الدَيِّن» بالإضافة إلى اسمه الذى يوصف به فى علم البيولوجيا، وهو «الإنسان العاقل»، وتؤكد د. أرمسترونج أن المفاهيم الدينية فطرية عند البشر، ومن ثم يستحيل استئصال شأفة الدين من النفس الإنسانية كما يطمع الملاحدة، أى أن الأمر ليس «وهم الإله» كما أطلق زعيم الملاحدة ريتشارد دوكنز على أهم كتبه.

سؤال يطرح نفسه هنا؛ ما هى مستجدات العلم الحديث عن صفات الإنسان التى تقف وراء اقتراح كارين أرمسترونج؟.

كائن عاطفى، خلوق، متدين:

توصلت فروع العلم الحديث المهتمة بالإنسان إلى عدد من المفاهيم حول طبيعته، وقد صارت هذه المفاهيم بمثابة الحقائق العلمية، وأهمها:

* إن الإنسان عاطفى بطبعه، وأن هذا الحس مُسجل فى جيناتنا (٣٠).

* إن المفاهيم الأخلاقية مدموغة فى جينات الإنسان منذ نشأته (٣١).

* إن الحس الدينى جزء من بنيتنا النفسية، وإنه مسجل فى جيناتنا (٣٢).

(٣٠) إدوارد ويلسون، أستاذ البيولوجيا الاجتماعية بجامعة هارفارد، بالولايات المتحدة.

(٣١) جيمس واطسون، عالم الوراثة، الحائز على جائزة نوبل لاكتشافه بنية الدنا DNA.

(٣٢) روبرت وينستون، رئيس الاتحاد البريطانى لتقدم العلوم.

* إن الشعور بثنائية الجسد والروح أمر فطرى مزروع فينا منذ ولادتنا (٣٣).

* إن الإنسان كائن ثنائى (جسد وروح)، دُمغ فى جيناته الإيمان بحياة أخرى، تحيا فيها الروح بعد مغادرة الجسد الفانى، وهذا الإيمان هو أصل الفطرة الدينية (٣٤).

معنى ذلك أن الإنسان كائن عاطفى خَلوق متدين بطبعه يستشعر ثنائية الروح والجسد وخلود الروح، وأن هذه الطباع مسجلة فى أدمغتنا وفى جيناتنا من خلال عدة آليات توصلت إليها علوم النفس والمخ والأعصاب، ونلخصها فيما يلى:

١- من النظريات القوية الثابتة فى علم النفس نظرية المزاجات والأخلاق الوراثية(٣٥)، التى قدمها منذ ثلاثين عامًا كلود كلونجر، أستاذ علم النفس والطب النفسى وعلوم الوراثة بجامعة واشنطن، أثبتت النظرية أن الإنسان يرث عن والديه ثلاث مجموعات من الأخلاق، وهى مصداقية الذات والتعاون والسمو النفسى الذى يشمل إنكار الذات والبعد عن المادية والميول الروحية، وتشكل هذه المجموعات الثلاث الغريزية الأساس النفسى لفطرة التدين وفطرة المنظومة الأخلاقية فى الإنسان، ثم تقوم التربية بتنمية هذه التوجهات.

٢- فى عام ١٩٨٣م قدم هارود جاردنر أستاذ علم النفس بجامعة هارفارد نظرية الذكاء المتعدد، وفى هذه النظرية أثبت جاردنر وجود عشرة أنواع من الذكاء الإنسانى - وليس نوعًا واحدًا - يشغل كل منها مركزًا مستقلاً فى المخ تم تحديده بالفحوصات الإشعاعية الحديثة، ومن هذه الأنواع الذكاء

(٣٣) مايكل شيرمر، فيلسوف ورئيس تحرير مجلة الشَكّاك.

(٣٤) بول بلوم، أستاذ علم النفس بجامعة ييل بالولايات المتحدة.

(٣٥) Temperament and character inventory.

الروحـي(٣٦)، الـذى يهتم بالقضايـا فوق الحسـية والعقيدة والاسـتقامة الأخلاقية ونفـاذ البصيرة وقوة الحـدس، إن ذلك يعنى أن هذه المفاهيم مبرمجة فطريًا فى دوائر أمخاخنا.

٣- تم باسـتخدام تقنيات التصويـر الحديثة تحديد مراكز التديـن أو مراكـز الألوهية فى المخ، وتشـمل مركزًا فى المخ الانفعالـى المسـئول عنه الجهـاز الحوفى، ومركـزًا فى المخ المنطقـى ويقع عند تلاقى ثلاثة من فصوص المخ الأربع، وهى الفصوص الجبهية والجدارية والصدغية، وقد ثبت أن المشاعر الدينيـة والروحية تكون مصحوبة بنشـاط هذيـن المركزين، كما ثبت أن تنشـيط هذين المركزين بمنشـط مغناطيسـى أو كهربائى خارجى يؤدى إلى استثارة المشاعر الدينية والروحية.

٤- كيف يتم تشكيل هذه المراكز الدينية والروحية؟.

اهتم العلماء بالبحث عن الجينات المسـئولة عن تشـكيل مراكـز التدين فى المـخ، وفى عام ٢٠٠٤م توصـل دين هامر (رئيـس مركز أبحـاث الجينـات بالمعهد القومى للسـرطان بالولايـات المتحـدة) إلى مجموعـة الجينات المسـئولة عن تشـكيل تلك المراكز المخيـة، وأطلق على أهم هذه الجينات اسـم جين الألوهية(٣٧)، ونشر دين هامر نتائج هذه الأبحاث فى كتاب أطلق عليه نفس الاسم.

وتجاوبًا مـع كتاب دين هامر، طرحـت مجلة تايم Time الأمريكيـة فى عدد ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٤م موضوعًا مهمًا بعنوان جين الألوهية، تؤكد فيه أن الشـعور بالإله، والرغبة فى التوجه إليـه بالعبـادة، وكذلك الشـعور بوجـود النعيـم والعذاب فى

(٣٦) وجد جاردنر معارضة قوية ممن يعتبرون أن كل ما ينسب إلى الروح ليس بعلم فاستبدل الاسم «بالذكاء الوجودي».

(٣٧) هذا الجين معروف عند علماء الجينات باسم VMAT2.

حياة أخـرى بعد الموت، أمـور فطرية عند البشـر، فى جميع الحضارات عبر التاريخ وعبر الجغرافيا.

وانطلاقًـا من المفاهيم الأربعة السـابقة تأسـس علمٌ جديد يعـرف بعلـم البيولوجيـا العصبيـة للروحانيـات - Neuro Theology». ويهتم هذا العلم بدراسة دور المراكز المخية فى المشاعر الروحية.

قوبلـت هـذه المفاهيم بعـدم ارتياح فى الأوسـاط المادية، فهى تنفى أن المشـاعر الدينيـة مجرد هلاوس، كما تثبت أنها نتـاج لعمليات عقلية سـوية، كذلك تلاقى المفاهيم السـابقة معارضـة قوية أيضًـا من العديد من المتدينيـن! إذ يعتبر هؤلاء أن التوصـل إلى آليات مادية للمشـاعر الروحيـة ينزع عن هذه المشـاعر روحانيتهـا ويصلهـا بعالـم المـادة ويقطـع صلتها بالعوالـم الغيبيـة، والحقيقـة أن هـذه المخـاوف لا مبرر لها، بـل إننـا نرى أن ما توصـل إليه العلم من معـارف دليل على أن المخ البشـرى قد تم إعداده مسـبقًا (فطريًا وغريزيًا) ليكون همزة الوصل بين عالم الغيب وعالم الشـهادة، ذلك أن الجسد المـادى الذى خلقه الله تعالى من مادة الأرض مغاير تمامًا لعالم الغيب الذى منه جئنـا وإليه نعود، بل ونظل طوال حياتنا على تواصـل معه، كمـا يثبت ذلك (كما ذكرنا فـى بداية الفصل) أن الشـوق للألوهية والدين وكذلك المشـاعر الروحية ليست أوهامًا كما يـروج الماديون، بل هى استشـعار لوجود حقيقى يصلنا به وظائف مخية سـوية، لذلك تم إعداد المخ البشـرى سلفًا ليقوم بتلك المهام الدينية والروحية، وهذا هو التجسيد العملى لمفهوم الفطرة.

***

المسألة الأخلاقية

الأنانية والإيثار، الضمير:

عندمـا يجلب أمُر ما لأنفسـنا اللذة والسـرور فإننا نشـعر تجاهـه برغبـة تحملنا على البحـث عنه أو القيـام به، وعندما يسـبب لنا المعاناة أو الألم فإننا نشعر نحوه ببغض يدفعنا إلى الفرار منه وتحاشـيه، وتسـمى هذه الميـول بالميول الأنانية، وشعارها: كل شيء لي ولو كان ذلك على حساب الآخرين.

ومـن النـاس مـن يتصفون برقـة العاطفـة، فيتألمـون لآلام الآخرين ويُسَـرون لسـرورهم، فيسـعون للتخفيف من آلامهم وجلب السرور لهم، ويُسمى ذلك بـالمشاركة الوجدانية، وإذا وصـل الأمل إلى التضحية مـن أجل الآخرين صـار ذلك إنكارًا للذات، وأُطلق عليه اسـم الإيثار. وهؤلاء يكون شـعارهم: كل شيء للآخرين ولو كان ذلك على حسابي.

وعندما نبلغ سـن الرشـد، يتشـكل لنا ضمير، يشعرنا أن عملاً ما واجب التنفيذ، وآخر واجب الترك، وثالث مباح، فإذا فعلنـا (أو تركنا) ما هو واجب شـعرنا بلـذة الرضا الأخلاقي، وإذا قَصَّرنـا فى ذلك شـعرنا بإيلام تبكيـت الضمير، ومن ثم يصبـح وحى الضمير هو المصدر الثالث للسـعادة والشـقاء، وهؤلاء يكون شعارهم: إرضاء الضمير أولاً وقبل كل شيء.

وتمثـل هـذه الدوافـع الثلاثة مـا يُعرَف عند الفلاسـفة بـ المسـألة الأخلاقية، التى تهتم بكيف نسـلك تجـاه ما يعتمل داخلنا من طموحات وتطلعات مختلفة، أنتبع الميول الأنانية، أم نسـتجيب لعاطفة الرحمـة والإيثار، أم نسـعى إلى طمأنينة الضمير؟ والإنسان السوى يحكمه توازن من الدوافع الثلاثة.

وتأتى الديانات لتنظم العلاقة بين هذه الدوافع؛ تحثنا على الفاضـل منها، وتنهانا عما هو دنـيء، كما تخبرنا أن الإله هو الذى زرع فينا الضمير، والديانات فى حكمها على الشيء بين فضل ودناءة إنما تخضع لمقاييس مطلقة يحددها الإله.

وفى المقابل، ترى النظرة الإلحادية أن هذه الدوافع شكَّلَها التطـور البيولوجى وليس الخلـق الإلهى، وأن هدف التطور فى تشـكيل المنظومـة الأخلاقية هو تحقيـق الفائـدة التى تخدم تكاثر الكائن وبقاءه، ومن ثم تصبح الأخلاق نسـبية، تتشكل فى إطار أن الغاية تبرر الوسيلة.

وبينما يَسهل تفسير دافع الأنانية بآلية الغاية تبرر الوسيلة، فمـن الصعب تفسـير دافـع الضمير، أما دافع الإيثار فسـيظل بمثابة الصخرة الكؤود فى طريق التطور الداروينى.

لا شـك أن الإيثار من أصعب الأخلاق التى يعجز التطور عن تفسير نشأتها، فالإيثار يعمل ضد هدف التطور الرئيسى، وهو المحافظة علـى حياة الفرد، فما الذى يدفعنى للتضحية بذاتى من أجل المجتمع والجنس البشري؟!.

بل إن الداروينية تعجز عن تفسير خُلُق أقل سموًا من الإيثار، وهو التعاطف، فى البداية، طرح دارون أمثلة شديدة السواد فى تاريخ الإنسـانية، فذكر أن بعض قبائـل الهنود الحمر يتركون ضعفاءهم ووالديهم المسنين ومرضاهم فى العراء ليموتوا، أو يدفنونهم أحياء! من أجل الحفاظ على موارد الطبيعة الشحيحة للأفراد الأصحاء المفيدين للمجتمع، وهو ما يتمشى مع مفهوم الصراع من أجل البقاء، ثم يتنبه دارون إلى مفارقة كانت كفيلة بأن تبدل مفاهيمه؛ يقول دارون: لقد صار التعاطف – مع تقدم الحضارة – أنبل ما فى طبيعتنا البشرية، فصار الأغلبية العظمى من البشـر يبذلون أقصـى جهد فـى رعاية والديهم المسـنين ومرضاهـم وضعفائهم، وإن كلفهم ذلـك ثرواتهم المتواضعة بل وحياتهم، كما صار الناس يشـيدون المصحات ويسـنون

القوانين لحماية حياة من يعرفون ومن لا يعرفون، عجبًا...

لماذا اعتبر داروِن أن التضحية من أجل الآخرين والتى تتضاد مع الصراع من أجل البقاء هى أسمى ما فى الإنسان؟!.

للخروج من هذا المأزق قَدَّم الدراونة لخُلق التعاطف تفسيرًا يتعارض مع مقاييسهم، فقالوا إن الإنسان يساعد الضعفاء والمسنين من أجل أن يساعده الآخرون عندما يهرم، وهذا التفسير مرفوض بمنظور الداروينية! فالتطور الداروينى بما فيه من الصراع من أجل البقاء لا يتعامل إلا مع الحاضر، ولا يعرف الدوافع المستقبلية، فهو لا يقنع بالتضحية اليوم من أجل هدف مستقبلى.

كذلك فإن إنفاق الوقت والجهد والموارد من أجل المحافظة على شريحة غير مفيدة للمجتمع يتعارض بشكل صارخ مع الانتخاب الطبيعى الذى يحافظ على الأصلح ويتخلص من الضار، فهل يعمل التطور ضد قوانينه؟!.

ولا شك أن كل ما قدم الدراونة من تفسيرات لخُلق التعاطف وللإيثار ليس إلا هروبا من التفسير الحقيقى، وهو أن الإله الرحيم قد فطر الإنسان على خلق الرحمة، فصار يحيا تحركه القاعدة الإلهية بأن من لا يَرحَم لا يُرحَم.

أخلاق بلا أخلاق:

يقول داروِن: فى فجر الإنسانية، أعطى الصراع من أجل البقاء للرجال الأقوى والأقدر فرصًا أكبر للتكاثر والمحافظة على نوعهم، لذلك ينبغى ترك باب التنافس مفتوحًا بين الرجال، ولا ينبغى أن يُمنع الرجال الأكثر قدرة - بحكم العادات والقوانين - من إنجاب أكبر عدد من الذرية، وإلا لضعفت الإنسانية.

إن هذا المفهوم يؤصل قيمة أخلاقية شديدة الخطورة، وهى

أن الرجل الأفضل لابد أن يُعطى فرصة أكبر للتكاثر!، بذلك يصبح منع الزنا وتشجيع الزواج الفردى خطرًا على الإنسانية! لأنه يعيق تكاثر الأفضل، إن ذلك يعنى أن ما هو أَلْيَق من المنظور الدينى والإنسانى والأخلاقى (العفة) يكون أسوأ من المنظور الداروينى (يتبنى الإباحية)، كذلك ينبغى أن ندين داروِن بتهديد البشرية وخداعها! فقد كان شديد الإخلاص لزوجته إيما.

ومن هذه الآلية الداروينية، يخرج داروِن بقاعدة شديدة الخطورة، وهى أن وصفنا لسلوك ما بأنه جيد أو سيئ يكون من منطلق الفائدة المادية وليس القيمة الأخلاقية، أى ليس هناك أخلاق فاضلة وأخرى دنيئة، لكن هناك سلوكيات ومفاهيم تُعين (أو لا تعين) بشكل مباشر أو غير مباشر فى الصراع من أجل البقاء.

وكمثال آخر للأخلاق بدون أخلاق نقف مع الإجهاض، فالديانات السماوية ترفض الإجهاض باعتباره قتلاً للنفس التى حَرَّمَ الله قتلها، وإذا كان الملاحدة يتفقون مع الديانات فى تحريم القتل، فإن هذه القاعدة تتمزق بسهولة إذا طُرح الإجهاض!.

يتبنى زعيم الملاحدة المعاصرين ريتشارد دوكنز أنه لا ينبغى أن ننظر إلى الجنين كإنسان! بل كتجمع من الخلايا، ويعتبر أن حيوانًا بالغًا له حُرمة أكثر من جنين الإنسان، إذ إنه يعانى من الألم أكثر مما يعانيه هذا الجنين داخل الرحم أو حتى الطفل المولود حديثًا!، بل إن بعض الملاحدة (مثل الفيلسوف بيتر سنجر) يُبيح قتل الأطفال المولودين حديثًا إذا لم يرغب والداهم فى الاحتفاظ بهم، كما يوافق على قتل النازيين للضعفاء والعاجزين، فهكذا تعامل الحيوانات التى

تعانى نفس المشاكل !.

قبل أن يطرح دارون نظريته بفترة طويلة، تبنى الفلاسفة الملحدون نظرة مادية إلى الأخلاق تنزع عنها أى فضائل، وقد عبر عن هذا المعنى بوضوح فى القرن السابع عشر فيلسوف الإلحاد توماس هوبز، إذ اعتبر أن الطبيعة ليست إلا مادة متحركة، وبالتالى فهى ليست فاضلة أو غير فاضلة، إنها فقط لا تبالى بالفضائل، لذلك لا ينبغى أن نتحدث عن خير وشر مجردين، تمامًا مثلما لا نتحدث عن تفاعل كيميائى خَيِّر وآخر شرير، إنها أمور تحدث بالضرورة، ومن ثم فالخير والشر ليسا إلا انعكاسًا لرغبات الإنسان، ما يحب وما يكره، ومن ثم فهى مفاهيم نسبية، فإذا كان إفلاس خصمك شر له فذلك خير لك، ومن ثم فأخلاق الإنسان (عند الماديين) ليست إلا تفاعلات مادية.

وبعد ثلاثة قرون، طرح نيتشة (فيلسوف النازية) نفس الفكرة قائلاً: إن كونًا بدون إله يكون خاليًا من مفاهيم الخير والشر، بل إن هذه المفاهيم ليست إلا تصورات يفرضها الإنسان على الكون الذى لا يبالى به.

هل تصلح البيئة مصدرًا للأخلاق؟

يقول زعيم الملاحدة المعاصرين، ريتشارد دوكنز: لسنا فى حاجة إلى الإله لنكون خَلُوقيين، فأنت لا تكاد ترى اختلافًا كبيرًا فى ردود أفعال المتدينين والملاحدة، بل وبين البشر جميعًا، تجاه مواقف أخلاقية معينة، إن قول دوكنز يعنى أن البشر جميعًا لديهم مصدر مشترك للمفاهيم الأخلاقية، بغض النظر عن الاختلافات الجنسية والحضارية والعقائدية، إن ذلك الاتفاق الأخلاقى يرجع إلى أحد احتمالين؛ إما أن المفاهيم الأخلاقية فطرية فى الطبيعة الإنسانية، وإما أن تكون هنالك

رسالة سماوية واحدة وصلت إلى شعوب الأرض جميعًا:

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(فاطر: ٢٤).

نحن نقول بالرأيين معًا (الفطرة والرسالة) كما ذكرنا فى أول الفصل.

لكن، هل يقبل الملاحدة الجدد أيًا من هذين الرأيين؟ بالطبع لا، لذلك لم يبق أمامهم إلا البيئة (الطبيعة والمجتمع) كمصدر للمنظومة الأخلاقية الموحدة، هنا يقع الملاحدة فى تناقض؛ فدوكنز يحدثنا عن عالمية الأخلاق ويرجعها إلى عوامل طبيعية ومجتمعية متشابهة تَعَرَّضَ لها الجنس الإنسانى الواحد، بينما يعتبر التطوريون أن تباين هذه العوامل عنصر هام فى التنوع البشري!.

ولما كان العلم جزءًا من المنظومة البيئية للإنسان، ادعى الملاحدة أن الثورة العلمية شاركت فى تشكيل منظومتنا الأخلاقية المعاصرة، يدفع أينشتين هذا الادعاء قائلاً: لا يمكن أن يكون العلم مصدرًا للأخلاق، لا شك أن هناك أسسًا أخلاقية للعلم، لكننا لا نستطيع أن نتحدث عن أسس علمية للأخلاق، لقد فشلت وستفشل كل المحاولات لإخضاع الأخلاق لقوانين العلم ومعادلاته.

ويشارك الفيزيائى ريتشارد فينمان (الحائز على جائزة نوبل) أينشتين رأيه قائلاً: إن أكبر القوى والقوانين الفيزيائية لا تستطيع أن تبين لنا كيف نستخدمها، إن العلم لا يُعَرِّفنا الخير والشر، لذلك فالقيم الأخلاقية تقع خارج مجال العلم، لقد جعلنا العلم أكثر معرفة وأكثر قوة، لكنه تركنا فى الوقت نفسه أقل ثقة بالصواب والخطأ.

ونلخص الأمر بمقولة للأديب الروسي العظيم دستوفسكى:

إذا لم يكن الإله موجودًا . . . فكل شىء مباح .

إذًا، من أين نستمد أخلاقنا؟

لا شك أن العديد من الملاحدة يتبنون مكارم الأخلاق، ويرجع ذلك إلى أن منظومة الإنسان الأخلاقية منظومة فطرية، ويرجع أيضًا إلى ما ترسَخ فى نفوس البشر من أخلاق صارت بمثابة العُرف، بعد أن أصَّلتها الديانات عبر الأزمان السابقة .

والعجيب أن دوكنز (زعيم الملاحدة) الذى يُرجع نشأة القيم الأخلاقية إلى التطور، يرفض أن تكون أخلاق التطور هى مرجعيتنا، انظر إلى قوله: إن الانتخاب الطبيعى فى التطور الداروينى لا ينتج إلا أمثال هتلر، والمجتمع الداروينى لا يكون إلا مجتمعًا فاشستى ينتشر فيه التعصب العنصرى والتصفية العرقية .

إن هذا الطرح يوقع دوكنز فى موقف متضارب شديد الغرابة، فهو يرى أن القيم الأخلاقية ليس لها مصدر سماوى، سواء من الفطرة أو من الدين، وفى نفس الوقت يرى أنه لا ينبغى أن نستمد قيمنا من الطبيعة، فهى لا تقدم إلا الصراع، فمن أين نستوحى القيم التى ينصحنا باتباعها ؟ ! .

يجيب دوكنز عن هذا التساؤل بأن علينا أن نفحص أخلاق التطور لنختار منها المفاهيم الحسنة Nice لنثق بها وندع الباقى، السؤال هنا: ما هو مقياسنا للمفهوم الحَسَن ؟ . . .

يرى دوكنز أن المسيح عليه السلام كان من أعظم مصلحى التاريخ، وأن أخلاقه مثال يمكن أن يُحتذى . . . لكن من أين استمد المسيح قيمه ومرجعيته وأخلاقه؟ لا شك أن المصدر ليس التطور الداروينى، وليس هناك مفر من الإقرار بسماوية مصدر الأخلاق الإنسانية الفاضلة، رغم أنف كل التفسيرات الساذجة التى يقدمها الملاحدة للتهرب من الإقرار بذلك .

مصائب دين الإلحاد

لا يقف الملاحدة الجدد عند ادعاء سُمِّية الدين ! وأمان الإلحاد، بل يجعلون من المادية دينًا، ويدعون أنها قادرة على التغلب على ما فى النفس البشرية من قصور، ويعتبرون - بصلف وعنجهية - أن فى أيديهم خلاص البشرية .

ليسوا لا دينيين بل ضد الدين:

لا يكتفى الملاحدة الجدد بعدم الإقرار بوجود الإله، ولا بالإقرار بعدم وجود الإله، ولا بدعوة الآخرين لذلك، وكلها بدائل متاحة لإنسان لا دينى، لكن الملاحدة الجدد يوجهون قذائفهم «ضد» الإله، ليس فقط على مستوى القضايا العلمية، بل أيضًا على المستوى الأخلاقى، فيعتبرون أن الكتب المقدسة تطرح مفاهيم أخلاقية متدنية، ويؤكدون أن البشرية ستكون أحسن حالاً دون هذه المفاهيم، ويعلنون أنهم ليسوا ضد الأخلاق بصفة عامة لكنهم ضد الأخلاق التى تطرحها الديانات .

ويرى ملاحدة الغرب أن التوراة تصف الإله تعالى وأنبياءه من بنى إسرائيل بصفات حقيرة متدنية (نَعُفُّ عن ذكرها، ونَعفُّ عن أن نصف بها أعتى المجرمين والمنحرفين) ويتخذون من ذلك ذريعة لموقفهم المعادى لليهودية والمسيحية، وقد وجدها حُدَاة الإلحاد فى الغرب والشرق فرصة لمد هذه الحملة ضد القرآن الكريم ! وأخذوا يعملون بهمة وحماس للانتقاص منه ومن نبى الإسلام العظيم .

بل ضد الإسلام:

فى البداية أعلن زعيم الملاحدة ريتشارد دوكنز أن موقفه المعادى يتجه ضد الديانات كلها، وتارة أخرى يركز على المسيحية التى درس عقائدها جيدًا وأثاره (كما يقول) ما فيها من عدم منطقية ومجافاة للعلم، وأخيرًا ينكشف القناع،

ففى محاولة لعقد هدنة مع المتدينين فى الغرب (بعد أن عَرَّوه تمامًا) نجده فى حوار نُشر بمجلة التايم فى ٢ أبريل ٢٠١٠ يقول: بقدر علمى ليس هناك مسيحيون فجروا المبانى، ولم نسمع عن مسيحى انتحارى واحد، ولا أعرف داعيًا مسيحيًا واحدًا يؤمن أن للردة حد هو القتل، إن لَدَيَّ مشاعر متباينة تجاه المسيحية، لقد صرت أعتقد أن المسيحية ربما تكون حصنًا ضد شىء أسوأ منها (يقصد الإسلام).

الإلحاد المسالم!!!

يَدَّعى زعيم الملاحدة الجدد ريتشارد دوكنز أن إنكار إنسان للإله لا يمكن أن يؤذى الآخرين، ولا يمكن أن يدفع إنسانًا لفعل أشياء سيئة، وفى أحد حواراته، يحك دوكنز رأسه فى وقار ويتساءل: لا أجد حربًا واحدة نشبت باسم الإلحاد، لماذا يخوض إنسان حربًا بسبب غياب المعتقد؟! ويستشهد قائلاً: لا أعتقد أن ملحدًا واحدًا مستعد لأن يُجَرِّف مكة أو الكاتدرائيات المقدسة.

يسخر ريتشارد شرويدر (أستاذ الفلسفة فى برلين) من ادعاءات دوكنز، فيقول: إن الكاتدرائيات المقدسة أعلى من أن تجرفها الجرافات، لذلك فضل ستالين فى الاتحاد السوفيتى وماوتسى تونج فى الصين تفجيرها بالديناميت!، وينبغى ألا نغفل عن محاولات إقامة الشيوعية فى العالم التى كلفت البشرية مقتل أكثر من ٩٤ مليونًا من البشر من المسلمين والمسيحيين، مما يجعلها أكثر المحاولات الفاشلة كلفة فى التاريخ.

جهل أم تزوير: تاريخ الماركسية والنازية:

ردًا على ادعاءات دوكنز، بأن الإلحاد لا يمكن أن يؤذى أحدًا، نُذَكره بأحداث تاريخية غابت عن كل الملاحدة الجدد (عن علم أو عن جهل):

مع الماركسية:

يتخذ دوكنز من الاتحاد السوفيتى مثالاً لإمكانية قيام حضارة بغير دين، ويجيبه أحد الفلاسفة السوفيتيين الذين عانوا من الحياة هناك قائلاً: كنا نظن أنه يمكن أن نكون أفضل دون إله وأن نحافظ على إنسانية الإنسان، كم كنا مخطئين، لقد حطمنا الإله والإنسان سويًا.

ولمن يَدَّعون ألا علاقة بين الماركسية والإلحاد، ننقل قول ماركس الذى اشتهر عنه: «لا يُعتبر الإنسان مستقلاً إلا إذا صار سيد نفسه، أما الإنسان الذى يحيا بدعم خارجى فليس إنسانًا مستقلاً، ويُعتبر الإنسان تابعًا كاملاً لآخر إذا دان له بوجوده الأول وباستمرارية حياته، لذلك فإن محو الدين كمصدر للسعادة المتوهمة هو الطريق لتحصيل السعادة الحقيقية»، هل مازال للمنكرين حجة؟!.

ألم يقرأ الملاحدة كتاب «الكتاب الأسود للشيوعية»؟ ألم يقرأوا فيه: «لقد حَوَّلت النظم الشيوعية الجرائم الجماعية إلى عمل مشروع، لقد بلغ عدد الضحايا حوالى ٩٤ مليون قتيل، منهم ٨٥ مليونا فى روسيا والصين فقط، هذا بالإضافة إلى ملايين أخرى كثيرة، اقترب بها التعذيب من حافة الموت، وملايين آخرين نُفوا إلى سيبريا، وأكثر منهم دُفعوا إلى إدمان المخدرات، ذلك بالإضافة إلى ملايين قضوا أعمارهم فى السجون لجريمة وحشية ارتكبوها، وهى أنهم آمنوا بالإله، ولا شك أن ملايين عديدة قد حُرموا من فرص التعليم لنفس السبب، وهذا القتل الفكرى أسوأ من تدمير المبانى، وأحيانًا كان ستالين رحيمًا، فلم يفجر دور العبادة، بل كان يحولها إلى متاحف أو سينمات أو مطاعم، لقد أغلق ستالين عشرات الآلاف من المساجد وعشرات الآلاف من الكنائس»، ألم يقرأ دوكنز وغيره من الملاحدة ذلك؟!

وماذا عن هتلر؟

فـي كتاب «إلـه هتلر» يبين المـؤرخ مايكل ريسـمان أن هتلر اعتبـر قوانيـن الطبيعـة التي تعمـل في الكـون هي الإلـه، وكان يـردد أن المسـيحية تـروج لإلهيـن (الأب والابـن)، وأنها أكبر ضربة أصابت البشـرية، وأن العالـم كان نقيًا طاهرًا قبل أن يعرف مصدري المعاناة الكبيرين للبشرية؛ الجدري والمسيحية، وينظر هتلر للمسـيحية باعتبارها عقيدة تبيد معارضيها باسم الحب، إن محورها هو عدم تقبل الآخر!.

ويشـبه موقف هتلر من المسيحية موقف نيتشه، حين وصفها بأنهـا «لعنة كبرى»، خـواء وفقر داخلي، غريـزة الانتقام لا يقف في وجهها شيء، لذلك أطلق عليها الوصمة الخالدة للإنسانية!.

وقد حـاول المتعصبـون لهتلر إظهـار تعاطفه مع المسـيحية انطلاقًا من نشـأته الدينيـة، لكن يكذب محاولاتهـم تلك موقفه العدائي الرهيب من المسيحيين ومن اليهود.

الإلحاد الجديد أشد خطرًا:

سـادت في أوروبا في القرن الثامن عشر أفكار تدعو إلى سيادة العقل وترفض المفاهيم الغيبية، وينسـب المؤرخون والمفكرون لهـذه الأفكار الفضـل في بعث الحضـارة المعاصـرة، حتى إنهم يطلقون عليها «فكر الاسـتنارة»، ويصفـون رجالها بأنهم «رجال الاسـتنارة»، وحقيقة الأمر أن فلسـفات هؤلاء الإلحادية أشـعلت عقول طغاة ومسـتبدي القرن العشـرين، فانبثقت من قلب أحلام المدينة الفاضلة لفلاسـفة التنوير أخطر حركتيـن تدميريتين في التاريخ؛ الشيوعية والنازية.

إن اسـتقراء التاريخ يعلمنـا أن الحركات التي تبـدأ بالتحليل الفكـري ثم المناظـرات الفكرية يمكن أن تـؤدي إلى عدم قبول الآخر، ثم إلى العنف، فلا شـك أن كارل ماركس عندما جلس في

مكتبه يكتب أفكاره الإلحادية في هدوء، لم يكن يتصور ما آل إليه الأمر من مذابح، إن الأفكار لها عواقب وتوابع، ومن الأفكار ما هو قابـل للانحراف، وبدلاً من أن تؤدي الأفكار الإلحادية إلى القضاء على الدين والإله فإنها قضت على إنسانية الإنسان.

وبالرغم من ذلك، فإن الإلحاد الجديد أشـد خطرًا من الإلحاد الذي أفرزه فكر الاستنارة، كيف ذلك؟:

انظر إلى دوكنز وهو يقول: إن تعليم الدين بأسلوب وسطي معتدل هـو بـاب التطرف الدينـي، ومن ثم ينبغـي إغلاق هذا البـاب، ونحن نجيبـه بنفـس منطقه؛ فإن الاتجاه اللاديني المعتـدل يمكن أن يكون بابًا للاتجاه «ضد الديني» المتطرف، فيثير رد فعل ديني متطرف.

إن ذلـك التسلسـل ليـس فرضية أو تصـورًا؛ بل هو تسلسـل طبيعـي كلف البشـرية الكثير، إن نظرة سـريعة لمـا صار يُعرف بالأصولية الإسـلامية التي مارس بعض رموزها أشـكالاً من العنف ضد الغرب، تُظهر أنها موقف دفاعي مباشر ضد محاولات القضاء على الإسلام.

وقد جسـد ملفن كونر (أستاذ علم الإنسان - أنثروبولوجيا - بجامعـة هارفـارد) الموقف العدائي للملاحدة الجـدد تجاه الدين وإصرارهم على القضاء عليه بقوله ساخرًا: «إن الملاحدة استوفوا القضيـة مـن كل جوانبها، ولم يبق إلا سـؤال واحد: هل يضربون الدين بقضيب حديدي أم بمضرب لعبة البيسبول الخشبي؟».

المحصلة:

إن كل ما طرحه الماديون من فرضيات مهترئة لتفسـير مصدر مفهـوم الألوهية والدين والأخـلاق يقف وراءه الرفـض للمفاهيم الغيبيـة، خاصة البعـث بعد الموت وما يتبعه مـن ثواب وعقاب، فذلـك يتطلب الالتزام بنمط أخلاقي عفيف، وهذا عين ما يرفضه الملاحدة.

وينطلق الماديون في فرضياتهم اللاعلمية من «خطأ مزر» يمارسونه عن قصد أو غير قصد، وهو تصورهم أن وجود فوائد وراء فكرة الإله والدين يعني أن الإنسان قد اخترعها لتحصيل هذه الفوائد، ومن ثم اعتبروا أنهم إذا أثبتوا وجود هذه الفوائد فقد أثبتوا أن الألوهية والدين من اختراع الإنسان!.

تأمل هذا المثال الذي يبين سخف تصور الملاحدة انقطع التيار الكهربائي عن المكان الذي تسير فيه، ثم تنبهت أن معك هاتفك المحمول، فاستخدمته لإضاءة الطريق، لقد كانت الفكرة مفيدة حقًا، هل يعني وجود الفائدة أن الهاتف المحمول مجرد وهم اخترعته لحاجتك إلى الضوء؟ أم أن الهاتف وجود حقيقي؟ إن وجود الفائدة لا ينفي وجود الشيء، بل يؤيده.

سبحان الله! لقد قلبوا الحقائق؛ عندما وجدنا علة للشيء تبرر وجوده ادعوا أن العلة دفعتنا إلى توهم الوجود! لقد جعلوا من وجود العلة الغائية مدعاة لافتراض التوهم!!.

ويضع ديفيد بيرلنسكي، الفيلسوف الأمريكي الكبير، يدنا على حقيقة العلاقة بين الإلحاد والشر، قائلا: إن الذين اقترفوا جرائم ضد البشرية، مثل هتلر وستالين وماوتس تونج ورجال الجستابو والمخابرات الروسية (ونحن نضيف رجال الأسطول الأمريكي والموساد) لم يكونوا يعتقدون أن الإله يراقبهم، وهذا ببساطة هو مفهوم المجتمع العلماني المطلق...

فالفكر العلماني المطلق ينظر إلى الإنسان باعتباره جزءًا من الطبيعة، لذلك يستبعد العلمانيون الدين كمصدر للمعرفة والأخلاق وللقوانين، ويستنبطونها من تجارب الإنسان وخبراته الحياتية، وبالتالي يصبح الإنسان هو المُطلق بدلاً من الله تعالى.

***

الفصل الخامس

الإلحاد في العالم الإسلامي

تُعتبر ظاهرة الإلحاد من أخطر الظواهر في تطور الحياة الروحية، وتُفسح هذه الظاهرة لنفسها مكانًا عندما تصل الحضارة إلى طور الرفاهية، ذلك أن بعض النفوس تكون قد استنفدت تطلعاتها وإمكانياتها الدينية واشتاقت إلى المزيد من المتع الحسية.

ويختلف نمط الإلحاد تبعًا لروح الحضارة التي انبثق فيها، فإذا كان نيتشه قد عَبَّرَ عن الإلحاد الغربي بقوله: «لقد مات الإله»، وعبر الإلحاد اليوناني بقوله: «إن الآلهة المقيمين في المكان المقدس قد ماتت»، فإن الإلحاد العربي يقول: «لقد ماتت فكرة النبوة والأنبياء»، ذلك أن الإلحاد في العالم الإسلامي يصدر عن الروح العربية التي كانت تنظر إلى العلاقة بين الله وبين العبد باعتبارها افتراق وبُعد كامل، واحتل فيها النبي (الوسيط بين الله والعبد) أخطر دور في الحياة الدينية الإسلامية، وهذا يفسر لنا لماذا اتجه الكثيرون من الملاحدة في الحضارة الإسلامية وأيضًا في الموجة الإلحادية التي نشهدها الآن إلى فكرة النبوة وإلى الرسول ﷺ لم يتعرضوا للألوهية إلا قليلاً.

وفي الواقع، لا فرق في النهاية بين منكري الألوهية ومنكري الديانات (الربوبيين)؛ فبإنكار الإله عند اليوناني القديم وعند الغربي المعاصر ينتفي الدين، وبإنكار النبوة والأنبياء عند العربي ينقطع كل سبيل إلى الألوهية ذاتها، وفي النهاية سيتلاشى في الحالين القول بالبعث وما يتبعه من ثواب وعقاب وما يتطلبه ذلك من الالتزام بطاعات والانتهاء عن معاص، وهذا هو جوهر ما يهتم به الملاحدة بكل أصنافهم.

حروب الردة

مـا أن انتقـل الرسـول الكريـم ﷺ إلـى الرفيق الأعلـى حتى اجتاحـت الفتن جزيـرة العرب، حتى لم يبق علـى الدين القويم إلا أهل مكـة والمدينة والقبائل المحيطة، وقـد تمثلت هذه الفتن فى حدثين كبيرين، أطلق عليهما الدارسـون اسم «حروب الردة»، وقد جَرَّد الخليفة أبو بكر الصديق عشـرة جيوش خاضت حروبًا طاحنة حتى قضت على الفتنة واستقرت الخلافة الإسلامية.

تَمَثَّـل الحـدثُ الأول فى رفض بعض القبائل سـداد زكواتها إلى السـلطة المركزية فى المدينة المنورة، فـرأى الخليفة الصديق فى ذلـك تهديدًا لوحدة الأمة الناشـئة، فحـارب هذه القبائـل تدعيمًا لوحدة كيان الأمة، أما الحدث الثانى فكان ادعاء مسـيلمة الكذاب وطليحـة بن خويلد الأسـدى والأسـود العنسـى وسـجاح وغيرهم النبـوة، ويقـف وراء هـذا الحـدث رغبـة هـؤلاء فى تحقيـق الجاه والسلطان فى بيئة تتصارع قبائلها من أجل السيادة.

وإذا كان ادعـاء النبـوة يمثـل ردة حقيقيـة وإلحـادًا، فلا ينبغى تعميم ذلك على مانعى الزكاة.

حركة الزنادقة

بعد انتهاء حروب الردة، شُغل المسلمون بنشر الإسلام وتدعيم الدولة الناهضة والدفاع عن حدودها، كما شـغلوا بصراعات الفتنة الكبرى، وتأسيس الدولة الأموية ثم العباسية ومحاربة المعارضين، وقد مثلت هذه الظروف مناخًا مناسـبًا لظهور العديد من المذاهب والفرق، كالخوارج والجبرية والقدرية والمُرجئة والمعتزلة و...

نشأة الإلحاد فى الحضارة العربية الإسلامية:

وصل الإسـلام خلال القرنيـن الثالث والرابع إلـى أكمل صورة قُدِّرَ للحضارة العربية بلوغها. وتبعًا «لسنن التطور الحضاري»، بدأ

الانحـدار عن تلك القمة فـى العديد من المجـالات ومنها المجال الدينـى، فكان ذلك هو العامل الرئيسـى وراء ظهور الإلحاد، الذى يدعمه عدد من العوامل المساعدة.

وتُعتبر «النزعة الشعوبية» أهم تلك العوامل المساعدة، وتتمثل فـى الانتقـام الشـعوبى من جانـب الفـرس الذين قامـت الحضارة الإسـلامية على أنقاض حضارتهم، وقد حرك ذلك تعصبهُم لدينهم القديم، فى بيئة يمثل فيها الدين العامل الحاسم فى نشأة القوميات والدول، تأتى بعد ذلك «النزعة المادية» التى تمجد العقل بحسبانه الحاكم الأول والأخير الذى لا راد لحكمه، وقد نشـأت هذه النزعة فى العالم العربى الإسـلامى نتيجة لانتشار الثقافة اليونانية فى تلك البقاع، سـواء بشـكل مباشـر أو عن طريق بلاط كسـرى الفرس، وتُعتبر «النزعة الحسـية» ثالث العوامل المساعدة لظهور الإلحاد، فقد ضاق الكثيرون بضوابط الدين التى تحد من انطلاقهم فى إشباع شـهواتهم الجامحة، ونرصد ذلك فى سـلوك الجماعة المعروفة بـ «عصابة المُجَّان» على حد تعبير ماجنها الأكبر أبى نواس فى الشطر الأول من حياته.

من هم الزنادقة؟

«زنديق» لفظ فارسى مشتق من «زندكراي»، وهو الشخص الذى يتبع «كتاب زند» لزرادشـت نبى الفرس، وقد أُطلق الاصطلاح على من ظل بعد إسـلامه مرتبطًا بـتعاليم الديانات الفارسية، التى تدعو إلـى عبادة إلهين أزليين للعالم هما النـور والظلمة، وتحرم الذبائح وأكل اللحـوم، وتبيح كل ما يحقق اللذة من المحرمات؛ كشـرب الخمر ووطء المحارم، كما تروج لعقائد الهنود التى تقول بتناسخ الأرواح ووحدة الوجود والحلول والاتحاد.

ثم اتسع معنى اصطلاح زنديق حتى صار يُطلق على كل صاحب بدعـة وكل مُلحد، ثم اتسـع ليشـمل مـن يحيا حيـاة المجون من

الشعراء والكُتاب، وانتهى الأمر باللفظ حتى صار يُطلق على كل من خالف مذهبه بوضوح مذهب أهل السُّنة.

وقد نقم الزنادقة الشعوبيون على الحكم الإسلامي، فسعوا إلى الانقضاض على الحكم عن طريق تقريب العناصر الفارسية (كالبرامكة) من الخليفة العباسي، أو القيام بثورات عليه، كما سعوا إلى إفساد عقيدة المسلمين من خلال إقناع الشباب المسلم بمفاهيم حكيمهم مانى الداعية للإغراق فى اللذة.

ويشغل الزنادقة طيفًا يمتد من الحياة الماجنة والتمرد على العبادات إلى إنكار الألوهية، انظر إلى هذين البيتين للماجن بشار بن برد اللذين يُصَرِّحان بتوجهاته الإلحادية:

إبليسُ أفضلُ من أبيكم آدم ... فتبينوا يا معشر الفجارِ

النارُ عُنصُرهُ وآدم طينَه ... والطينُ لا يسمو سمو النار

إن بشار يتبنى نفس منطق إبليس الذى تسبب فى طرده من رحمة الله تعالى. ويُعتبر «ابن الراوندي» أشهر الشخصيات الملحدة من الزنادقة، ونعرض هنا باختصار لشخصه وأفكاره كمثال للفكر الإلحادى فى هذه الفترة.

ابن الراوندى:

يصف د. يوسف زيدان (أستاذ الفلسفة ومدير مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية) ابن الراوندى قائلاً: «من أعجب الشخصيات فى التاريخ العربى الإسلامى، بل فى التاريخ الإنسانى كله شخصية ابن الراوندى الملحد (أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحق) المتوفى فى حدود سنة ٣٠١ هجرية (قيل أنه مات فى الأربعين من العمر وقيل فى الثمانين)، فقد عاش الرجل حياة غريبة، تَنَقَّل فيها بين الديانات والمذاهب تحركه مصالحه

المادية المباشرة.

كان ابن الراوندى يهوديًا، وسرعان ما أعلن إسلامه ليستعز بالدولة العباسية، وصار معتزليًا بعد أن وجدهم أقرب الفرق الإسلامية من الخلفاء، ثم انقلب عليهم عندما لم يفسحوا له مكانًا لائقًا بينهم، وألَّف كتاب «فضيحة المعتزلة» فى مهاجمتهم، وعندما خشى بطش الخليفة هرب والتحق بالشيعة الباطنية أعداء الدولة، وألف لهم كتاب «فى الإمامة»، هاجم فيه مذهب أهل السنة نظير ٣٣ دينارًا، وعندما لم يحقق له الشيعة طموحاته، تقرب من أهل السنة مرة أخرى وأثنى على مذهبهم بكتاب أسماه «فى التوحيد».

لم ينل ابن الراوندى من السُّنة (ولا من الشيعة) مراده، فارتد عن الإسلام ولجأ إلى اليهود، وانتصر لدينهم بكتاب «البصيرة» مقابل ٤٠٠ درهم تقاضاها من اليهود، ثم أراد بعد فترة أن ينقض كتابه فأسكته اليهود بمائة درهم أخرى.

وفى نهاية الأمر، وقف ابن الراوندى ضد كل الديانات وكل الأنبياء، وشكك فى الألوهية، ووضع فى ذلك كتابيه «الفرند» و«الزمردة»، وهكذا عاش ابن الراوندى حياته متنقلاً بين المذاهب والديانات، وقضى أيامه البائسة ساعيًا وراء المجد الدنيوى، وهو المجد الذى ما ناله ابن الراوندى قط، وإنما نال لقب: «الملحد الأكبر فى تاريخ الإسلام»، انتهى كلام د. يوسف زيدان.

ويمكن تلخيص أفكار ابن الراوندى فى عدة نقاط:

١- القرآن الكريم ليس نصًا فريدًا، ويمكن كتابة ما هو أفضل منه.

٢- ليس لله حاجة لإرسال الرسل، فالعقل قادر على أن يصل بطبعه إلى رشده وإلى صلاح الإنسان.

٣- إن الحج ومناسكه طقوس هندوسية وعادات وثنية كانت

تُمارَس فى الجاهلية .

٤- كانت غزوات الرسول عمليات سلب ونهب .

٥- كان الملائكة الذين أنزلهم الله يوم معركة بدر قليلى البطش ، فلم يقتلوا سوى سبعين رجلًا ، وتساءل ساخرًا لِمَ لم يُنزل الله ملائكته يوم أُحد لينقذ المسلمين من الهزيمة ؟ .

٦- يتهكم على وصف الجنة فى القرآن الكريم قائلًا : إن فيها حليب لا يشتهيه إلا جائع ، وزنجبيل ليس من لذيذ الأشربه ، وبها إستبرق وهو الغليظ من الحرير .

وينبغى هنا أن نفند أفكار ابن الراوندى (وأفكار الزنادقة) ، حتى لا نكون كمن أثار زوبعة من تراب وتركها تؤذى أعين الناس :

١- لا شك فى تعدد جوانب إعجاز القرآن الكريم ، وقد تحدى الله تعالى الكافرين أن يأتوا بعشر سور مثله ، بل سورة واحدة ، بل آية ! ومازال التحدى قائمًا ، وبالرغم من ادعاء ابن الراوندى بأن القرآن الكريم ليس متفردًا ، فهو لم ينزل إلى ساحة التحدي ! .

٢- لا يستطيع العقل أن يصل إلى حقائق الوجود دون معونة من الرسالات السماوية ، وقد أقر بذلك العديد من الفلاسفة حتى الملحدون منهم .

٣- تشتمل كل الديانات التى يعتنقها البشر على طقوس متشابهة ، منها الحج ، فمصدر الديانات جميعًا هو الإله الخالق ، ويعلم ابن الراوندى أن العرب كانوا يمارسون طقوس الحج نقلا عن خليل الرحمن إبراهيم قبل البعثة المحمدية .

٤- يدرك الدارس لغزوات الرسول أنها كانت إما دفعًا لعدوان ، أو تأمينًا للديانة الجديدة ، وما كان يؤخذ من غنائم إما كان استردادًا لأموال المهاجرين التى اغتصبت منهم ، أو تمشيًا مع أعراف العرب فى القتال .

٥- كان الدرس المقصود من نزول الملائكة فى معركة بدر

تعليم البشرية أن الله تعالى يُعين مَن يَصْدُق التوكل عليه واللجوء إليه ، أما الدرس المقصود من غزوة أحد فكان أهمية الأخذ بأسباب النصر المادية وأهمها طاعة القائد ، وهذا ما تجاهله ابن الراوندى ، ولم يشأ الله تعالى أن تُفنى ملائكته مشركى بدر لعلمه أن معظم من نجا سيدخل الإسلام ، وقد كان .

٦- يعلم كل مهتم بعلوم القرآن أن أوصاف الجنة جاءت تشبيهًا بما هو معروف عند العرب ومحبب لديهم حتى يستطيعوا إدراكه ، أما الحقيقة ففوق ذلك كثيرًا ومخالفة له تمامًا ، ففى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

هذا هو ابن الراوندى الملحد المُتَلِّون المنافق ، الذى خصه المستشرقون بالأبحاث المستفيضة ، مشيدين بحريته الفكرية وجهوده التنويرية ! .

وقبل أن نطوى صفحة الزنادقة ، ينبغى أن نستوعب أهم دروسها :

فى بداية حركة الزنادقة ، تصدى الخلفاء الأمويون والعباسيون لرجالها بالسجن والتعذيب والقتل ، فما أثمر ذلك إلا المزيد من شيوع أفكارهم ومفاهيمهم ، ثم نبه البعضُ الخليفة العباسى المهدى أن خير من يتصدى لهؤلاء هم المعتزلة (أصحاب المدرسة العقلية فى الفكر الإسلامي) وكان الخلفاء قد ألقوا بهم فى السجون لعدم رضاهم عن أفكارهم ، أفرج الخليفة عن المعتزلة ، فساحوا فى الأقاليم يناظرون الزنادقة ، ونجحوا فى أن يردوا معظمهم عن غيهم .

إن الدرس الذى ينبغى أن نتعلمه من هذه الصفحة من التاريخ الإسلامى أن الفكر لا يُقاوَم بالقهر ، لكن الفكر ينبغى أن يُقاوم بالفكر ، وهذا ما نصبوا إليه عندما ندعو إلى تجديد الخطاب الدينى ، بل وهذا هو قصدنا من تأليف هذا الكتاب عن « وهم الإلحاد » ليكون عونًا فى الوقوف فى وجه المد الإلحادى المعاصر فى بلادنا .

الإلحاد المعاصر

كما ساهمت النزعة العقلانية المادية في ظهور حركة الزنادقة فى العالم الإسلامى فى القرنين الثالث والرابع الهجرى، فقد أفرزت نفس النزعة توجهات لا دينية فى مصر منذ مدخل القرن العشرين.

بدأ التحول الفكرى فى مصر بالبعثات التى أرسلها محمد على وأبناؤه من بعده إلى أوروبا. فقد مكنت هذه البعثات المصريين من الاطلاع على ما كان يموج فى أوروبا - خاصة فرنسا - من توجهات عقلانية مادية ظهرت فيما عُرف بفلسفات التنوير، وفى الأدب العالمى بصفة عامة، ثم اطلع المصريون على التوابع الفكرية المادية لنظرية التطور الداروينية ولمفاهيم فرويد فى علم النفس، والتى لاقت قبولاً واسعًا فى الغرب، كذلك غذّى الحلم الماركسى الملحد المتمثل فى نجاح الثورة الروسية أوهام المدينة الفاضلة عند الكثير من الشباب. وقد أفرزت هذه العوامل مجتمعة عددًا من الأنماط الفكرية المعادية للدين.

ويقسم المفكر الكويتى الكبير د. محمد العوضى تلك الأنماط المعادية للدين إلى خمس مجموعات، وهم المتشككون والمؤدلَجون (نسبة إلى أيديولوجية، منهم الماركسيون) والتغريبيون والعلمانيون، وفى آخر المطاف الملاحدة، ويلفت د. العوضى نظرنا إلى أن الكثيرين من هؤلاء قد اعترتهم صحوة فكرية أعادت إليهم الوعى بأهمية الانتماء الدينى والحضارى والتراثى، ومن أشهر هؤلاء العائدين الدكتور عبد الرحمن بدوى، والدكتور زكى نجيب محمود، والدكتور طه حسين، والأستاذ محمد حسين هيكل، والدكتور سليمان مظهر، والشيخ على عبد الرازق،

والأستاذ خالد محمد خالد، والدكتور مصطفى محمود، والدكتور عبد الوهاب المسيرى، وآخرون.

واستكمالاً لطرح أبعاد «وهم الإلحاد»، نعرض لفكر شخصيتين تمثلان نموذجين للإلحاد المعاصر، وهما د. إسماعيل أدهم أشهر الملاحدة فى مصر، والذى وصف «بالمليحد» لموته قبيل بلوغه الثلاثين من عمره ولصغر كتيبه الذى اشتهر به «لماذا أنا ملحد»، وعبد الله القصيمى الذى يعتبره الملاحدة المعاصرون أبًا روحيًا لهم.

المليحد د. إسماعيل أدهم:

تركى الأصل، وُلد بالإسكندرية عام ١٩١١م، حصل على الدكتوراة فى الفيزياء والرياضيات من جامعة موسكو عام ١٩٣١م، وعمل مدرسًا بجامعة سان بطرس برج ثم بجامعة أتاتورك فى تركيا، وعاد إلى مصر عام ١٩٣٦م، وفى عام ١٩٣٧م نشر صديقه المفكر الإسلامى أحمد زكى أبو شادى مقالاً بعنوان «عقيدة الألوهية»، فرد عليه إسماعيل أدهم بمقال - تحول فيما بعد إلى كتيب - بعنوان «لماذا أنا ملحد» يشرح فيه معاناته مع الشك، وكيف انتهت به إلى تبنى الإلحاد، وترجع شهرته لكونه أول العرب المعاصرين الذين كتبوا عن تجربتهم الإلحادية.

يوضح إسماعيل أدهم تأثير دراسته وحياته بالاتحاد السوفيتى، قائلاً: «وكانت نتيجة هذه الحياة أنى تنكرت للأديان، وتخليت عن كل المعتقدات وآمنت بالعلم وحده وبالمنطق العلمي. ولشدة دهشتي وعجبى أنى صرت أسعد حالاً وأكثر اطمئنانًا من حالى حينما كنت أغالب نفسى للاحتفاظ بمعتقد ديني».

وبعد أقل من ثلاث سنوات، وفى إحدى ليالى شهر يوليو

عام ١٩٤٠م، عُثر على جثة إسماعيل أدهم طافية فوق مياه بحر الإسكندرية، وفى معطفه خطاب وجهه لرئيس النيابة يبين فيه أنه انتحر لزهده فى الحياة وكراهيته لها، ويوصى بعدم دفن جثته فى مقبرة المسلمين ويطلب إحراقها، أين السعادة والاطمئنان اللذين استشعرهما أثناء إلحاده؟!.

وإذا أردنا أن نتتبع دوافع إسماعيل أدهم الإلحادية، وجدنا للعوامل النفسية التربوية دور كبير، يركز أدهم فى كتيبه على أن أباه كان متعجرفًا وذا بطش، كما كان زوج عمته الذى تابع تربيته يجبره وهو طفل على القيام بالطقوس الدينية وحفظ القرآن، أما والدته فكانت نصرانية، وتابعها أختاه فى دينها، وكان يصف الثلاثة بالتسامح والمحبة، وكن فى نفس الوقت يسخرن مما فى الكتاب المقدس من حديث عن المعجزات ويوم القيامة، ويخبرنا إسماعيل أدهم أن هذا التعصب الإسلامى والسخرية من النصرانية مَثَّلا الخلفية النفسية التى مارس عليها الانبهار بالعلم وبالفكر الماركسى دوره أثناء حياته فى الاتحاد السوفيتى.

ويمكن أن نلخص المفاهيم الإلحادية عند إسماعيل أدهم فى بضع نقاط:

* الإلحاد هو الإيمان بأن الكون يتضمن سببه فى داخله، وأن لا شىء وراء هذا العالم.

* لا يرجع إقبال الفكر الإنسانى على مفهوم الألوهية إلى ما فيه من عناصر القوة الإقناعية الفلسفية، لكنه يرجع إلى ما يسميه علماء النفس «التبرير»، فقد شَقَّت فكرة الألوهية طريقها لعالم الفكر بسبب ما يعترى النفس البشرية من وهم وخوف وجهل بأسباب الظواهر الطبيعية، ولا شك أن إدراكنا لهذا الأصل لفكرة الألوهية يذهب بالقدسية التى

كنا نخلعها عليها.

* إذا كان لابد من الأسباب بالنسبة للكون، فلماذا يُستثنى سيادته عز وجل؟! من مبدأ السببية.

* يفسر أدهم وجود كل ما فى الكون بالاحتمالية والصدفة، ويستشهد على ذلك بمثال حروف المطبعة التى يمكن أن تتراص بالصدفة عقب حدوث انفجار فى المطبعة، لتخرج لنا مقالاً أو تخرج لنا القرآن الكريم.

لا شك أن المفاهيم الإلحادية لإسماعيل أدهم لا تختلف فى شىء عن الإلحاد الغربى المعاصر، والتى طرحناها ودحضناها فى الفصول السابقة من الكتاب، كما نستكملها فيما تبقى من هذا الفصل.

ومن الدروس المهمة التى نتعلمها من قصة إسماعيل أدهم، إدراك أهمية مناخ حرية الرأى وحرية العقيدة الذى كان سائدًا فى مصر فى ثلاثينيات القرن العشرين، لقد أثار مقال عقيدة الألوهية للأستاذ أحمد زكى أبو شادى المناظرة، فرد عليه صديقه إسماعيل أدهم بكتيب «لماذا أنا ملحد»، فأجابه أبو شادى بمقال «لماذا أنا مؤمن»، كما نشر الأستاذ محمد فريد وجدى فى مجلة الأزهر مقالاً بعنوان «لماذا هو ملحد»، لقد تميزت المناظرة بموضوعيتها وبأدب الاختلاف والحوار، قارن ذلك بفوضى تصارع الآراء السائدة فى بلادنا العربية فى القرن الحادى والعشرين، خاصة بعد ثورات الربيع العربى.

نكبة عبد الله القصيمى: (٣٨)

عبد الله القصيمى (١٩٠٧م - ١٩٩٦م) مفكر سعودى،

(٣٨) تلخيص عن مقال فى موقع صيد الفؤاد، للكاتب المُكَنَّى بـ «صخرة الخلاص».

من أكثر المفكرين العرب إثارة للجدل، بسبب انقلابه من موقع النصير والمدافع عن الإسلام والسلفية إلى الإلحاد.

لماذا؟...

قُدِّمت لتحول القصيمى وانتقاله «من التدين» إلى معسكر الإلحاد المعاكس عدة تفسيرات، تدور جميعها حول بنيته النفسية، لقد كان القصيمى شكاكًا بطبعه، فقد كانت تعتريه أثناء دفاعه عن الإسلام الشكوك حول الله عز وجل، وحول الرسول ﷺ كذلك كان الرجل ذا مزاج مندفع متطرف، فهو دائمًا متمرد ثائر بشكل عنيف، يشتم هذا ويلعن هذا ويسخر من هذا ويحطم هذا ويُمَرِّغ بهذا، فى البداية كان ذلك ضد أعداء الدين، ثم صار ضد الدين ومناصريه!.

كذلك كان الرجل متكبرًا مغرورًا بنفسه، حتى أنه مدحها شعرًا قائلًا:

ولو أن ما عندى من العِلم والفضل
يُقَسَّمُ فى الآفاق أغنى من الرُسْلِ

لا شك أن هذا البيت وحده يكشف خبيئة الرجل ويفضح دوافعه الإلحادية.

وأيضًا لم يكف القصيمى ما وصل إليه من شأن فى مجال الدفاع عن الإسلام، إذ شاركه فى هذا المضمار الكثيرون، فقرر أن يتفرد فى مجال تميزه، ويتضح ذلك مما دَوَّنَه على الغلاف الخارجى لكتابه (هذه هى الأغلال) قائلًا: «سيقول مؤرخو الفكر أن بهذا الكتاب بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل»، يبدو أن مصيبة «الكبر» التى أودت بإبليس قد أودت بالرجل.

ويعتبر من يعرفون القصيمى أنه كان من مدمنى ركوب

الموجات الفكرية الرائجة، فحينما كانت الفرصة متاحة للموجة السلفية ركبها وانتفع بها حتى استنفذ أغراضه منها، فلما برزت موجات القومية واليسارية والشيوعية وغيرها ركبها واستغل منابرها الصحفية وتحمس لفلسفاتها الإلحادية.

وعندما سُئل القصيمى عن سبب تحوله، أجاب بأنه عندما بدأ يراجع نفسه وعقيدته بميزان العقل، وجد من المشايخ ورجال الدين كل هجوم وتعنيف وازدراء، بدلًا من التفهم والنصح والتوجيه، فدفعه هذا الموقف إلى العناد، سبحان الله!.. ما أحكم المصريين حين قالوا فى أمثالهم الشعبية «العند يُورِثُ الكفر» وقد كان!.

قاذورات القصيمى الإلحادية:

بعد انحرافه عن جادة الإيمان، كتب القصيمى حوالى عشرة كتب، لا تخرج عن:

* التعدى على الذات الإلهية وسبها بكل فظاظة والسخرية منها.
* سب الرسل والأنبياء بأحقر الألفاظ والسخرية منهم.
* السخرية من الشرائع والديانات جميعًا وانتقادها بأسلوب جارح هدام معيب.
* التحقير والاستهزاء بكل ما هو عربى مسلم.
* التغنى بآلام الإنسان وتعاسته وأحزانه وهمومه بشكل غريب فظ.

وأعتذر للقارئ مسبقًا لعرض نموذج من قاذورات هذا الرجل، انظر إليه يقول: «ذهبت إلى الغار... غار حراء... غار محمد وإلهه وملاكه... الغار العابس اليابس البائس اليائس، ذهبت إليه استجابة للأوامر، ذهبت إلى الغار الذى

ولَّد وورَّث وعلَّم ولقَّن وألَّف وحرَّض وخلَّد أقسى وأقوى وأغبى وأجهل وأدوم إلهيات ونبوات وديانات ووقاحات ووحشيات، لقد مات هذا الغار منتحرًا لأنه أوحى إلى النبى العربى ما أوحى، لا تستطيع كل الحسابات والإحصاءات أن تحسب أو تحصى الخسران الذى أصاب الحياة والإنسان من هذا الوحى والإيحاء، هل أساء أى إله إلى نفسه مثل إساءته إليها بإيحائه ومخاطبته ومحاورته للإنسان العربي» ! ! !.

يكفينا ما نقلنا... ونعتذر مرة أخرى عما نقلنا...

لعل ما نقلنا يفضح ما يعتمل فى نفس الرجل من كراهية وحقد وغيره من الكمالات، لعله يثبت ما وصفنا من خلل نفسى، فلأكن ملحدًا أو لا أكون، لماذا يجرنى ذلك إلى الانتقاص مما يؤمن به الآخرون؟

ويخاطب المفكر الكبير ميخائيل نعيمة القصيمي، معلقًا على فكره وأسلوبه قائلًا: إن قلمك ليقطر ألمًا ومرارة واشمئزازًا وحقدًا، ولو كان لمثل حقدك أن يصنع قنبلة لكانت أشد هولاً من قنبلة هيروشيما الذرية.

مات القصيمى طريح الفراش فى إحدى مستشفيات القاهرة... يَدَّعى البعض أنه تاب إلى ربه قبل أن يموت، تاب أم لم يتب، إنه الآن بين يدى ربه.

الإلحاد فى بيوتنا

يتردد فى الإعلام العربى (والمصرى بصفة خاصة) أن مدًا إلحاديًا ظهر بين الشباب العربى فى الفترة الأخيرة، فما نصيب هذه الأقوال من الحقيقة؟

ليس لدينا دراسات إحصائية دقيقة للإجابة عن هذا التساؤل، لكن هناك بعض الدراسات ذات الدلالة، فقد أجرى معهد جالوب الأمريكى دراسة فى أعوام (٢٠٠٦م -

٢٠٠٨م) شملت ١٤٣ دولة (١٠٠٠ شخص من كل دولة) فوجدت أن المصريين أكثر شعوب العالم تدينًا (١٠٠٪) تليها بنجلاديش ثم المغرب وجيبوتى والإمارات العربية.

كذلك نشرت صحيفة الوشنطن بوست فى ١٥ / ٦ / ٢٠١٣م نتائج دراسة أجراها معهد جالوب الدولى Win Gallup (وهو غير معهد جالوب الشهير) بعنوان (مؤشر عام حول الدين والإلحاد)، وأجريت الدراسة عام ٢٠١٢م على خمسين ألف شخص من ٥٧ دولة حول موقفهم العقائدى، فأظهرت الدراسة أن ٥٩٪ من العينة متدينون، ٢٣٪ غير متدينين، ١٣٪ ملحدون، وكانت أعلى نسبة للإلحاد فى الصين، بينما ارتفعت النسبة بين عامى ٢٠٠٥م و ٢٠١٢م فى باكستان من ١٪ إلى ٢٪، وهبطت فى ماليزيا من ٤٪ إلى صفر، وبذلك تصبحان أقل الدول إلحادًا، والمدهش أن الدراسة ذكرت أن نسبة الإلحاد بلغت ٦٪ فى السعودية! وبذلك تصبح فى مقدمة دول العالم الإسلامى، وتضاهى نظيراتها فى البلدان الأوروبية العلمانية مثل بلجيكا وفنلندا.

ولا شك أن هاتين الدراستين غير دقيقتين علميًا بالمرة، فالاكتفاء بعينات من ألف شخص من كل دولة مع التباين الهائل فى عدد سكان الدول، كالفرق بين الصين والإمارات مثلاً، لقياس ظاهرة شديدة الشيوع كالتدين، يفقد أى دراسة موضوعيتها، ويسمها بالانتقائية وعدم الحيادية وربما سوء القصد.

كذلك يؤكد ما أرصده من شواهد وجود هذا المد الإلحادى، فقد تم استحداث العديد من المواقع الإلحادية العربية على الإنترنت، وكذلك إصدار مجلات ومطبوعات

إلحادية فاخرة فى مختلف الدول العربية، وقد سجلت أحد أهم المواقع العربية الإلحادية أن الأسبوعين الأخيرين من شهر ديسمبر ٢٠١٢م قد شهدا التحاق ٣٥٠ شاب مصرى ملحد جديد بالموقع، وكان نصف هذا العدد من الفئة العمرية من ١٥ - ٢٥ سنة.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد حاورت خلال الأعوام الثلاثة الماضية عشرات الشباب الملحدين والمتشككين، كما علمت بيقين وجود مجموعات إلحادية فى الجامعات والمدارس (حتى الإسلامية والمسيحية منها) حيث يوزع البعض أوراقا على الطلبة تحمل هذه الأفكار، كما توجد مثل هذه المجموعات فى النوادى الرياضية ومختلف التجمعات الشبابية، لعل فى العرض السابق دليل جازم على وجود مد إلحادى فى بلادنا فى السنوات الأخيرة.

تفرض النتيجة السابقة سؤالاً مهمًا؛ ما السبب وراء هذا المد الإلحادى، وهل لثورات الربيع العربى دور فى هذا المد؟

لا شك أن السماوات المفتوحة كانت العامل الرئيسى وراء هذا المد، فقد سمحت من خلال النت باطّلاع الشباب على ما يموج به العالم من أفكار إلحادية، كما سمحت شبكات التواصل المختلفة بتبادل هذه الأفكار بينهم.

وقد زاد هذا المد الإلحادى بعد ثورات الربيع العربى، ويرجع ذلك إلى نجاح الشباب فى تحديهم لرموز السلطة فى هذه البلاد، مما شجع بعضهم على تحدى الرمز الأكبر متمثلاً فى منظومة الألوهية والدين، كما سمح جو الحرية الذى أتاحته الثورات بالبوح بهذه الأفكار.

استعرضنا فى الفصول السابقة حجج الإلحاد فى الفكر

الغربى والتى تدور حول القضايا العلمية الخاصة بخلق الكون وظهور الحياة ونظرية التطور الداروينى والعقل الإنسانى والأبحاث الحديثة فى شتى المجالات العلمية، مما يُسَوِّغ تسميته «بالإلحاد المادى الطبيعي».

وبخلاف الإلحاد فى الغرب، فإن دور القضايا العلمية فى الإلحاد بين شبابنا قليل؛ فدوافعهم الإلحادية أكثر سطحية وطفولية، وللانطباعات العامة فيه دور كبير، كما أن للخلفية النفسية فيه دور كبير أيضًا، إن الإلحاد الذى ظهر بين شبابنا تقف وراءه «مفاهيم مختلة» تختلف من مجموعة لأخرى، ويمكن أن نطلق على أشكال الإلحاد التى ولدتها أنواع الخلل المختلفة فى المفاهيم اسم «الإلحاد السفسطائي».

وسأعرض فيما تبقى من الفصل أنماط الإلحاد السفسطائى بين الشباب فى بلادنا، وذلك من خلال ما لمسته بتجربتى الشخصية، سواء فى محاوراتى ومناظراتى معهم أو متابعتى لمواقعهم ومدوناتهم وكتاباتهم، وقد أطلقتُ على كل نمط إلحادى اسمًا يُعبر عن دوافعه وسماته وما يميزه عما سواه.

الإلحاد المادى الطبيعى والإلحاد السفسطائى:

١- الإلحاد الصبيانى: اعتدنا فى صبانا أن نتحاور مع أقراننا، وكان كل منا يحرص على استعراض قراءاته وإظهار ثقافته، وكنت كثيرًا ما أطرح على محاوريَّ سؤالاً: إذا كان الله قد خلق الكون، فمن خلق الله؟

وبالرغم من أن هذا التساؤل الصبيانى قد قُتل بحثًا، وحُسم على أيدى علماء الكلام المسلمين منذ ألف سنة، وأيضًا على أيدى رجال اللاهوت فى المسيحية، فإن

الملاحدة فى بلادنا وعبر العالم يعتبرونه الحجة المحورية فى إلحادهم، ولا يقوم بهذا الطرح الصبيان فقط، بل كثير من الكبار أيضًا، حتى أن ريتشارد دوكنز يُقيم كتابه «وهم الإله» على هذا التساؤل !.

وملخص تفنيد هذه الحجة الإلحادية، أن كل موجود حادث لابد له من موجد (سبب)، وإذا تسلسلنا فى الأسباب لأعلى فسنصل حتمًا لسبب أول لا موجد له وراء كل الحادثات، ويطلق علماء المنطق على استحالة التسلسل إلى ما لا نهاية اصطلاح «التسلسل يمتنع»، ومن ثم يصبح السؤال عن سبب السبب الأول الذى لا سبب له سؤال غبي !، وإذا كنا لا نستطيع «تصور» موجود لا موجد له، فإن هذا «الدليل العقلى المنطقي» (التسلسل يمتنع) وكذلك «الدليل العلمي» المتمثل فى احتياج الكون والحياة والإنسان إلى مصمم ذكى، «يحتمان» الإقرار بالإله كموجد أول.

إذًا فقضية الإله الأزلى تُتعقل وإن كانت لا تُتَصور، بل إن العلم المعاصر يقدم لنا مفاهيم لا يمكن تصورها ولكن ينبغى تعقلها، مثال ذلك نظرية الكوانتم التى تخبرنا أن الجسيم تحت الذرى يمكن أن يكون فى أكثر من موضع فى وقت واحد !.

٢- إلحاد المراهقين: تُعتبر فترة المراهقة من أحرج الفترات فى حياة الإنسان، ففيها يبدأ المراهق فى الشعور بذاته والثقة بنفسه وعقله، فيعتبر آراءه وأحكامه العقلية هى المرجعية التى يقرر فى ضوئها صواب وخطأ الآخرين، بل ويجعل من نفسه ندًا للكبار فيتمرد عليهم ويرفض ما لا يروق له من آرائهم وأفكارهم كما تسيطر عليه

الرغبة فى الظهور، وقد أفرزت هذه الصفات (سواء تَخَلَّقَ بها المراهقون أو الكبار) عددًا من الأنماط الإلحادية، فاستحقت أن نطلق على كل منها اسمًا :

أ- إلحاد الندية والكبر: ينظر المراهق (سواء كان فى سن المراهقة أو كان كبيرًا مثل دوكنز) إلى الإله باعتباره رجلاً ذا قدرات خارقة (سوبر مان)، فيحكم على أفعال الإله بمقارنتها بأفعاله هو.

فى المناظرة بيني وبين قطب إلحادى، والتى أذاعتها إحدى الفضائيات، قال الملحد فى يوم من الأيام : قتلتُ باعوضة وتحديت الإله - إذا كان موجودًا - أن يقبل التحدى وأن يحييها !. يُعتبر التحدى لإحياء الموتى أحد أشكال الندية والكبر، وقد طرحه ملاحدة الأمم الغابرة على أنبيائهم، وكنت أظن أنه قد انقضى بانقضائهم، فإذا بالملاحدة المعاصرين يمارسونه بغباء. كيف يصير الأمر لو استجاب الله تعالى لكل تحد يطرحه ملحد؟ لا شك أن الحياة ستصير مهزلة، ويصبح الملحدون هم الآلهة.

ومن أمثلة الندية الخرقاء شكوى البعض من أن ليس هناك «عقد» بيننا وبين الإله يضمن لنا أنه سيوفى بوعده بالجنة إن أطعناه !.

ويؤدى الشعور بالندية إلى فرض تصوراتنا على الإله، من أمثلة ذلك تساؤل البعض : ما الذى يستفيده الإله من عبادتنا له طوال عمرنا ؟ لهؤلاء قلت : إن قواعد المنظومة (أو اللعبة كما يقولون) يضعها الإله الخالق، وليس للعبد المخلوق إلا الطاعة والالتزام، فأنت إذا شاركت فى لعبة كرة القدم مثلاً عليك الالتزام بقوانينها، ولا تستطيع أن تطبق قواعد لعبة كرة اليد ! وفى كل الأحوال فإن طاعاتنا لا تزيد من

مُلك الله تعالى شيئًا ، ولا تنقص منه معصيتنا ، والعبد هو المستفيد الأول والأخير .

ب- إلحاد التمرد: في مناظرتي التي بُثَّت فضائيًا ، أراد الملحد إظهار إعلائه لقيمة الحرية ، فقال : إني مستعد أن أدخل النار حرًا ولا أدخل الجنة عبدًا للإله ! ، إن تمرد هذا الملحد ليس بسبب اعتزازه بالحرية ورفض العبودية ، فقد خاطب رفيقته من خلال موقعه على شبكة المعلومات قائلاً لها « معبودتي » ! إنه تمرد على العبودية للإله بالتحديد .

إن جوهر المشكلة التي تولد إلحاد الندية والكبر وكذلك التمرد ، إنه لا يمكن قياس علم وأفعال الإله المطلق الأزلي الأبدي الذي لا يحده الزمان ولا المكان ولا منظومة الأسباب على علم وأفعال الإنسان المحدود المحكوم بالأسباب ، ومن أهم هذه الفوارق التي لا يتنبه إليها المراهقون أن الإله ليس كمثله شيء ، أي أنه مختلف تمامًا عن البشر ، ومن هذه الاختلافات أنه لا يفعل لغاية أو احتياج مثلما يفعل الإنسان .

لقد سقط إبليس اللعين في هذه الخطيئة المعرفية ، فتمرد على الإله ، وجعل من نفسه ندًا له وَحَكَمًا على أوامره تعالى ورفض السجود لآدم - عليه السلام - بدعوى مخالفة أوامر الله تعالى لمنطقه الإبليسي ؛ فإبليس من نار وآدم من طين ! .

ج- إلحاد خالف تُعرَف: أخبرني الأب أن ابنه فشل في تحقيق ما حققه إخوته من تفوق في مجال الدراسة ، وأخيرًا مال إلى الحديث مع الآخرين في قضايا الألوهية ، ثم تبنى الإلحاد بشكل كامل ، وعندما حاورت الفتى لمست فخره بأن ذلك جعله حديث المدرسة ، طَلَبَتها ومدرسيها ، بل وجعله يجالس ويحاور عددًا من العلماء والمفكرين

استجابة لوساطة والده على أمل أن يردوه عن إلحاده .

إن مخالفة أعراف المجتمع ومفاهيمه وقيمه المستقرة هي أيسر الطرق لتحقيق ذيوع الصيت والشهرة بين الأقران والآخرين ، ويجسد هذا المعنى موقف الدكاترة زكي مبارك ، فقد هاجم الإمام الغزالي في رسالته للماجستير التي كان عنوانها « الأخلاق عند الغزالي » ، وبعد أن صحح زكي مبارك مساره وأدرك قيمة المنهج الإسلامي كتب في مقدمة رسالته للدكتوراة وموضوعها « التصوف الإسلامي » « إليك أعتذر أيها الغزالي ، قصدت مهاجمتك حتى أشتهر ، فالشهرة قد تأتي على أكتاف العظماء »(٣٩) .

د- إلحاد الاستغناء: شكى لي الوالدان أن ابنهما قد تبنى الإلحاد ويدعوهما إليه ، وأنه يرفض أن يتحاور مع أحد ، لأنه « مبسوط كده » .

أرسلت إلى الفتى رسالة مع والديه ؛ أدعوه لمحاورتي ، فإن كان على صواب فليقنعني برأيه ، عندها سأدعم موقفه وسأقنع به والديه ، أما إن كان على خطأ فليعلم أن تمسكه بموقفه سيكلفه ما لا طاقة له به في الدنيا والآخرة ، وافق على دعوتي ، والتقينا ، قال لي : إن حياتي سعيدة مستقرة مع إلحادي ، فلماذا أشغل نفسي بقضية الألوهية والدين في الوقت الذي لا أشعر بحاجة إلى الإيمان بها ؟

قلت له : ما تقول في الطالب الذي لا يستذكر دروسه لأن حياته سعيدة مستقرة دون مذاكرة ، ولأنه لا يشعر بحاجة لبذل الجهد والمعاناة في ذلك ؟ ، إن هذا الطالب لا يستحضر أن هناك عواقب لحياته السعيدة تلك ، ألا ينبغي

---

(٣٩) من كتاب معارك زكي مبارك الأدبية.

على والديه ومدرسيه أن يوجهاه إلى ما فيه مصلحته، حتى وإن كانت المذاكرة على غير هواه، وحتى إن كان لا يدرك أهمية ذلك الآن؟.

وأضفت؛ لا ينبغي أن يحيا الإنسان تبعًا لما يحقق له السعادة وفقط، ولكن ينبغي أن يحيا تبعًا لما يمليه عليه العقل، وينبغي أن يحدد كيف يكون مساره بعد أن يدرك مصدره ومآله. وأضفت؛ إن الحياة تبعًا لما يمليه «الهوى» هي حياة المراهقين، أما الحياة تبعًا للعقل فهي حياة الناضجين، ومن ثم فإن «الاستغناء» الحالى ليس مبررًا لعدم الإيمان، اقتنع الفتى بمنطقى وَقبل أن يدخل معى فى حوار.

٣- إلحاد الربوبية: يشبه هذا النمط من الإلحاد ما كان سائدًا فى مكة وقت البعثة المحمدية، فقد كان القرشيون يؤمنون بوجود الإله لكنهم ينكرون أن يكون قد أرسل رسولاً

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

(العنكبوت: ٦١).

فيقول هؤلاء: نقر بوجود الإله، أما الأديان فادعآت سببت كل ما فى الدنيا من شقاء، ولا حاجة لنا بها، ويضيف آخرون: ما دليلكم على أن الإله قد خلقنا لغاية، لِمَ لا يكون قد خلقنا وتركنا؟ وكيف ينشغل بتفاهات مثلنا؟ هل هو فى حاجة إلينا؟.

أجبت هؤلاء: إن الإنسان إذا أقدم على فعل شيء دون سبب عددناه أبلهًا، فهل يُعقل أن يخلق الإله الوجود والإنسان دون حكمة أو غاية؟!.

وأضفت: إن الباحث عن الحقيقية يرحب بأى عون يأتيه، لذلك كان خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام (وغيره من الأنبياء والمرسَلين) يتفرس فى السماء باحثًا عن الإله، وفى النهاية قال:

﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾

(الأنعام: ٧٧).

وإذا كنا مخلوقين لغاية ألا يكون من الظلم ألا نُوَجَّه إليها عن طريق الديانات السماوية.

وحقيقة الأمر أن «القائلين بالربوبية المنكرين للديانات» هم و«الملاحدة» سواء بسواء، إذ إن إنكار الدين يُفرغ الألوهية من جوهرها، وهو تكليف الإنسان عن طريق الدين بأوامر ونواه، وما يعقب الموت من بعث وحساب وجزاء، وقد فَصَّلنا هذا المفهوم فى مقدمة الكتاب.

٤- إلحاد الجبر والتسيير: قال بعضهم: كان ينبغى على الإله أن يأخذ رأيى قبل أن يخلقنى، وبأى حق يحاسبنى إن لم أعبده، ألستُ حُرًّا؟ «إزاى يحاسب واحد على لعبة هو مش عاوز يلعبها»؟

لهؤلاء قلت: لو مش عاجبك انسحب من اللعبة! قال: كيف؟ قلت: بالانتحار! وليس هناك عاقبة تخشاها فأنت لا تؤمن بالبعث والحساب، وأضفت: إن عدم إقدامك على الانتحار لهو أكبر دليل على رضائك على خَلقه لك، حتى إنك قبل أن تعبر الشارع تنظر يمنة ويسرة عدة مرات حفاظا على حياتك، أفحَمته حجتى فقال: ربما يكون هناك شيء مما تقول، عندها سيعذبنى إلهك الذى يعاملنا كالعبيد، قلت له: أخيرًا وصلت إلى الحقيقة، فعلاقة الله بنا هى علاقة السيد بالعبد، وهذا ما تحاول دائمًا التملص منه بادعاء

الندية، والعدل يقتضي أن الإله الرحمن الرحيم يكون أيضًا منتقمًا جبارًا مذلاً، وأضفت، إن الإسلام يتبنى هذا المفهوم الذى يجمع بين الجمال والجلال، ولا يكتفى بأن «الله محبة» كما يعتقد المسيحيون، أو أنه «غضوب» فقط كما يعتقد اليهود، فلله الأسماء الحسنى جميعًا، جمالها وجلالها، ومن لم يعرف ذلك فمعرفته بالإله ناقصة.

وشكى بعضهم أن الإله يحاسبنا على اختياراتنا بالرغم من أنه فرض علينا أشياء، كالعائلة والبلد والمرض وأحداث كثيرة مما يمر بنا، قلت لهؤلاء: إن الله لا يحاسبنا على هذه الأشياء، الحساب لا يكون إلا على ما فيه مجال للاختيار، ويرجع ذلك الوضع إلى أن حرية الإنسان مقيدة وليست مطلقة، ذلك لأن قدراته ليست مطلقة، فحرية الإرادة بقدر المقدرة، فالإنسان فى عمله تزداد حريته بقدر ارتقائه فى السلم الوظيفى، أليس كذلك؟!.

ويتهم الملاحدة المؤمنين بأنهم جبريون، إذ يؤمنون أن الله دَوَّنَ كل ما سيقع حتى يوم القيامة فى لوح محفوظ وأننا ملزمون بأن نتبع ما دَوّنه، ويرى الملاحدة أن هذا جبر محض وظلم بَيِّن، قلت لهؤلاء: إن علم الله الذى لا يحده الزمان كاشف لما سيحدث وليس ملزم، ولنوضح الأمر نضرب مثالاً: تصور إنسانًا اخترع آلة الزمان، وتقدم بها مائتى عام فى المستقبل، ورأى ما سيفعل أحفاده، ثم عاد لزمانه ودَوَّنَ ما رأى، هل ما دَوَّنَه ملزم لهم أم أنه دَوَّن ما صدر منهم بالفعل، هذا هو حال العلم الإلهى الكاشف، ولا يتعارض ذلك مع إرادة الله المطلقة، فقد أراد الله أن تكون لنا إرادة.

٥- إلحاد الإله المخادع: قال الملحد: تدعون أن

الإسلام هو الدين الحق، فكيف يرسل الإله لأقوام رسلاً بديانات فاسدة؟ ولماذا ركز الديانات كلها فى منطقة الشرق الأوسط بينما حرم أقوامًا آخرين من الديانات تمامًا؟ وبعد ذلك يحاسب ربكم البشر ويُدخل النار أقوامًا لا ذنب لهم، إن إلهكم الذى تَدَّعون إله ظالم مخادع.

لقد جهل هؤلاء بديهيات الدين، فالديانات السماوية جميعها هى الإسلام، ليس فيها دين حق ودين باطل، وقد كُلِّفَ أتباع الرسالة الخاتمة أن يبينوا لأصحاب الرسالات السابقة ما اعترى رسالاتهم من تغيير.

كذلك لم يترك الله عز وجل أمة دون أن يرسل لها رسولاً:

﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾

(النحل: ٣٦)،

بل ما كان الله ليعذب من لم تصله الرسالة:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾

(الإسراء: ١٥).

إن الله تعالى ليس بمخادع، بل الملاحدة هم الذين يخدعون أنفسهم.

٦- إلحاد الإله الظالم القاسى: يبلغ الإلحاد السفسطائى مداه بادعاءات تصف الإله بالظلم، فيقول بعضهم: كيف يعاقب إلهكم الرحمن الرحيم الإنسان على معاص يرتكبها فى حياته القصيرة (وإن كثرت) بعذاب أبدى لا يحتمله بشر.

قلت لهذا المعترض: ولماذا لم يدهشك عِظَم الثواب والنعيم فى جنات تخلد فيها مقابل طاعات قليلة؟، إن

حجتك تصبح ذات قيمة إذا كان عِظَم العقاب يقابله فقط النجاة من العقاب فى حالة الطاعة، إلا أن عظم العقاب يقابله عظم الثواب، ولم يكتف الإله بذلك، بل دلك على طريق الجنة وأعانك على السير فيه وتعهد بأن يُبدل سيئاتك حسنات فى حال التوبة من المعاصى. وأضفت: إن الإنسان إذا سب كلبًا أزعجه فله العذر، أما أن يهين والديه فلا عذر له، أعنى لا تنظر فقط إلى عِظَم المعصية، لكن انظر فى حق مَن ارتكبت المعصية.

أجابنى الشاب الملحد قائلاً: لقد تكررت كلمة العذاب بمشتقاتها فى قرآنكم قرابة أربعمائة مرة، ربما أكثر من أى كلمة أخرى، أليس فى هذا دليل على القسوة الشديدة؟،

قلت له؛ إنك تقلب الأمور وتجعل الرحمة قسوة، أما كان ينبغى أن تقول إن الله حذرنا أربعمائة مرة، وفى كل مرة وصف لنا طريق النجاة، وضربت لذلك مثالاً: ما قولك فى أم تنبه أولادها - كلما خرجوا من المنزل - أن يأخذوا حذرهم عند عبور الطريق؟ هل تصف هذه الأم بالقسوة لأن تحذيرها يجعل أولادها يستحضرون فى أذهانهم احتمال إصابتهم فى حادث؟! أم أن سلوك الأم هو عين الحب والرحمة؟.

وأضفت قائلاً: هل تنتظر من الله تعالى أن يربت على أكتاف حفنة الشيوعيين (ستالين وماتس تونج و...) الذين قتلوا قرابة ٩٤ مليون شخصٍ لينشروا مذهبهم الإلحادى الفاسد، وهل تنتظر من الله تعالى أن يلتمس لهتلر الذى قتل قرابة ثلاثين مليون شخص العذر لأن حياته كانت قصيرة؟!.

أصر الشاب على عناده وقال: كيف يطلب إلهكم من نبيه إبراهيم أن يذبح ابنه، أى قسوة تلك أن يُطلب من أب

مُسن أن يذبح وحيده الذى رزق به على كِبَر؟ قلت له: هل طُلب منك مثل ذلك؟ أجابنى بلا، قلت: وهل طُلب ذلك من إنسان آخر سوى إبراهيم؟ فقال لا، فعَقَّبت شارحًا الموقف: إن إبراهيم عليه السلام ادعى (عن حق) أن ليس هناك أحد أو شىء أحب إلى قلبه من الله عز وجل، فكان طبيعيًا أن يُختبر فى هذا الادعاء السامق بمثل هذا الطلب القاسى، وتستطيع أن تقول إن الطلب كان ذبحًا لتعلق إبراهيم بابنه، وما كان الله عز وجل يدع إبراهيم يقتل وحيده، بل كان جزاء إخلاص إبراهيم عليه السلام أن صار خليلاً للرحمن وأن أصبح موقفه هذا عيدًا تحتفل به البشرية كل عام حتى يوم القيامة.

وأضفت: بعد ذلك كله، فإن قسوة الإله وظلمه ليست حجة ضد وجوده، بل حجة ضد رحمته، ومن ثم فهى ليست حجة للإلحاد، وحاشا لله أن يكون ظالمًا أو قاسيًا، بل حاشاه أن يكون عادلاً! فهو الرحمن الرحيم، لكنها الرحمة الحقيقية الإلهية المطلقة، وليست رحمة الضعف البشرى، فلا ينبغى أن نقيسها بمقاييسنا.

٦- إلحاد التعنت والسَّفَه: قال الشاب لى: كيف يعطينى الإله غرائز ثم يطالبنى ألا أستعملها؟ وكيف يطالبنى أن أخسر نقودى باسم الزكاة، وأن أخسر وقتى وجهدى باسم الصلاة، وأن أخسرها جميعًا باسم الحج والعمرة؟

قلت له: إن الإنسان ليس بهيمًا تحركه الغرائز وفقط، إن ما طُلب منا هو توجيه هذه الغرائز وترشيدها، وفى ذلك ترقية للنفس وسمو للروح.

إن الملاحدة إذ يدعون إلى إطلاق الغرائز يشبهون الصبية

الذين يريدون أن يتفرغوا للعب وفقط، بينما يُلزمهم والداهم بإنفاق بعض الوقت فى مذاكرة دروسهم لما فى ذلك من مصلحة لاحقة.

وإذا كان الماديون يرفضون إنفاق بعض المال والوقت والجهد فى سبيل الله ويعدون ذلك سفهًا فما بالهم ينفقونها فى سبيل المجتمع استجابة لتعاليم الشيوعية.

٨- إلحاد عدم التصور: قال لى شاب ملحد: لا أستطيع تصور الإله الموجود الذى لا موجد له، ولا الموجود الأزلى الأبدى، ولا الموجود فى كل مكان ولا مكان، ولا أتصور أن يكون للإنسان إرادة مع طلاقة الإرادة الإلهية. ثم أردف قائلاً: كيف تطالبنى أن أؤمن بإله أنا عاجز عن تصوره وتصور أفعاله.

نكرر هنا أن أُس البلوى فى قضية الإلحاد هو أن نزن العلم والفعل الإلهى المطلق بميزان العلم والفعل البشرى المحدود، هنا تنشأ عدم القدرة على التصور ومن ثَمَّ يحدث الإنكار.

٩- إلحاد المحامى الفاشل: من أقوال الشيخ محمد الغزالى التى أصاب بها كبد الحقيقة - وما أكثر ما فعل - قوله: «إن الإسلام قضية حق محاميها مقصر خائب» إن بعض من حاورت من الملاحدة الشباب عاتب بشدة على الخطاب الدينى، خاصة بعد ثورات الربيع العربى، وعاتب أيضًا على أداء تيار الإسلام السياسى، وكانت الخطوة التالية أن حَمَّل الإسلام كدين أخطاء هذه الممارسات.

إنه خطأ معرفى أن أُعمم تقصير البعض، فأنتقل به من عيب الممارسة إلى عَوَار المنظومة كلها، ما أشبه ذلك بمريض حدثت له مضاعفات صحية عقب عملية جراحية،

فأصبح يشكك ليس فقط فى قدرة الأطباء والجراحين بل وفى جدوى الطب والجراحة.

١٠- إلحاد تحصيل الأهداف: قال لى: أليس الغرض من الأديان حث البشر على تعمير الأرض، وحثهم على أن يعامل بعضهم بعضًا بخُلق حسن؟ وأضاف: نحن نجد أممًا ملحدة تلتزم بهذين الهدفين إلى أبعد الحدود، كما نجد أفرادًا ملاحدة أكثر التزامًا بالهدفين من كثير من المتدينين، فما لزوم الدين؟ وكيف يدخل رجال عظام قدموا للبشرية خدمات جليلة مثل نيوتن وفولتا وماكسويل وأينشتين النار؟

قلت له: هذا الادعاء من أكبر الأخطاء وأكثرها شيوعًا عن دور الدين، إن تعمير الأرض والخُلق الحسن ليسا هدفين للدين لكنهما فى الحقيقة وسيلتين! فهدف الدين أن يُعرِّف الإنسان بربه أولاً، ثم بمصدره هو ومساره ومآله، ولا يتحقق حُسن المآل إلا بتحصيل رضا الله تعالى، والسبيل إلى ذلك تعمير الأرض والخُلق الحسن، بشرط أن تكون أفعال العبد ابتغاءً لمرضاة الله تعالى. أما إن لم نضع هذه الغاية فى اعتبارنا، فستظل أفعالنا - مهما حسنت - بعيدة عن أن تحقق للإنسان حسن المآل، وعلى الإنسان أن يُحَصِّل مكافأته ممن عملٍ لأجلهم.

وأضفت قائلاً لمحاورى: إن ما ذكرتُ لك هو دور الدين الأساسى، أما أن تسألنى عن أشخاص بعينهم أَهُمْ من أهل الجنة أم من أهل النار؟ أجيبك قائلاً إن مفتاح الجنة ليس بيدى أو بيد أحد من البشر، والأمر كله لله تعالى.

١١- الإلحاد الحسى: قال لى فى المناظرة التى أذاعتها الفضائيات: إن الوجود الإلهى قضية فى منتهى الأهمية، ولابد أن يكون الدليل عليها مناسبًا لها فى القوة، لذلك

ينبغى أن يكون دليلاً حسيًا أو تجريبيًا ، بل إننى إذا التقيت بالإلـه فـى الطريـق وصافحنى فذلـك غيـر كاف ! فعليه أن يثبـت لى أنه هـو الخالق وهو الرازق وهـو المحيى وهو . . . كيف تريدنى أن أصدق شيئًا لم أره ؟ .

قلت له : إن كلامك هذا ملىء بالأخطاء العلمية ، فالدليل الحسـى الذى تطلبـه هو أضعف الأدلـة ! فالحس خادع ، ألا ترانا نبصر قوس قزح ونبصر السراب وهما ليسا موجودين ! وفى نفس الوقت فإننا لا نبصر أشـياء أثبت العلم وجودها ، كالجاذبيـة والثقـوب السـوداء ، أمـا الدليـل التجريبى فلا يُسـتخدم إلا فـى العلوم التجريبيـة كالفيزيـاء والكيمياء ، وعندمـا تطلبه فى قضية الألوهية فإنك تطلب دليلاً فى غير موضعه ، كالذى يريد أن يبصر بأذنيه !

وأضفت قائـلاً له : إن الأدلة الأقوى فى الاستشـهاد على الألوهيـة هى الأدلة الرياضية والعقلية . أما إذا التقيت بالإله وأحيى أمامك الموتى فستقول إن ذلك لا يدل على الألوهية ، فالعلم قد يثبت فى المسـتقبل أن ذلك ممكنًا ! وقد سبق أن قال أمثالك عـن أنبيائهم الذين قدموا لهـم هذه المعجزات أنهم سـحرة ، فالعلم المسـتقبلى بالنسـبة لك هو إله سـد الثغرات الـذى تقول به كلما واجهت دليلاً على الألوهية لا يمكنك رده .

١٢- إلحـاد الشـهوات (٤٠): يُبتعـث الكثيـر مـن شـبابنا إلى دول العالم الغربى والدول الشيوعية (سابقًا) ، ويعاينون نمطًا من الحياة تحتل فيه العلاقات الجنسية خارج

(٤٠) أطلق الشـيخ عبد الحليم محمود، شيخ الجامع الأزهر الأسبق، على هذا النمط من الإلحاد اصطلاح إلحاد البطن والفرج.

إطار الزواج موضعًا محوريًا باسـم الصداقة والحب ، كذلك فإن هذا النمط يدخل بيوتنا عن طريق الإعلام والسـماوات المفتوحـة ، كما تعرض المواقع الإباحية على الشباب كمًّا كبيرًا من المثيرات .

نتيجـة لذلـك ، يتوق بعـضُ شـبابنا إلى هـذا النمط من الحيـاة ، وقد تُمثل التنشـئة الدينيـة حاجـزًا أخلاقيًا وعبئًا نفسيًا يؤرقهم ، فيلجأ بعضهم للهروب من هذه المعاناة إلى إسـقاط منظومة الإله والدين من حياتهم بالتنكر لها . لذلك لا نجد هذا النمط من الإلحاد فى العالم الغربى ، فلا مشكلة عند شـبابهم فـى الجمع بين الإيمـان الدينى وبيـن الحياة المتحررة أخلاقيًا .

١٣- إلحـاد عقدة النقص: عقـب الحلقة الأولى من مناظرتى مع الملحـد التى أذيعت إعلاميًا ، اتصل بى صديق وأخبرنـى أن ابنه الذى سـبق أن ألحد قد طلب منه أن يصلى معه العصر ، وعندما سـأله عن سـر تصحيـح موقفه بالرغم مـن أن المناظرة مازالت فى بدايتها ، قـال الابن : عندما كنا نشـاهد هـذا الملحد وغيره فى النت كانوا يشـعروننا أنهم هـم الحكماء الذين يحتكمون دائمًا للعقل ويرتكزون على العلم ، أما الدين ورجالـه فهم المتخلفون علميًا والعاجزون عقليًـا وأنهـم لا يحسـنون إلا ترديـد مـا جاء فـى التراث ، فأصبحوا خارج الزمان وخارج الحضارة ، وأضاف الفتى ، أما وقد شـاهدت الجزء الأول مـن المناظرة وعاينت قوة حجج د . عمـرو العلميـة والفلسـفية وعجز الملحـد أن يدفعها ، تأكـد لى كم هم أقـزام ومدعون ، وأدركـت أن الدين عظيم وأن حججه لا تُدفع بشرط أن يُحسَنَ عرضُه .

١٤- إلحـاد نقض العهد: قال لـى : تَدَّعون أن إلهكم

أخـذ علينا عهدًا في يوم الذر بأن نعبده، لكنني ولا أنت ولا أحد من البشر نذكر هذا العهد، فكيف يجعل الإله هذا العهد الذى تَرَكَنا ننساه حجة علينا ويدخلنا النار إن خالفناه؟

قلت له: أَقبل حجتك لو أن سيناريو الأحداث سار كما تدعى، لكن الأمر ليس كذلك، فالعهد مازال قائمًا في نفس كل منا، متمثلاً في الفطرة السليمة المدركة لوجود الإله، كذلك وضع الله تعالى أدلة الألوهية في الكون والأنفس، وأرسل الرسالات السماوية تستحث العقل ليتأمل هذه الأدلة، وتُذَكِّر الإنسان بما نُسِيَ من العهد وطُمس من الفطرة، لذلك حفل القرآن الكريم بالدعوة إلى التذكر، بل إن الرسول الكريم ﷺ إنما بُعث مُذَكِّرًا:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾

(الغاشية: ٢١).

١٥- إلحاد البساطة: قال لى الشاب الملحد: إنكم أيها المتدينون تنظرون إلى الإنسان نظرة شديدة التعقيد، لقد أدخلتموه فى دهاليز غيبية وصلت بكم إلى افتراض تواصله مع إله سماوي! بينما هو كائن بسيط مثل باقي الحيوانات! يعمل وينتج ويستهلك ويستمتع وفقط.

قلت للشاب: إن نظرتك هذه هي سبب مأساة الإنسان في الحضارة المعاصرة، وقد شَخَّصَ د. عبد الوهاب المسيرى هذه المأساة قائلاً: إن الحضارة الحديثة حضارة عقلانية مادية (لا عقلانية وحسب)، فإنجازاتها الضخمة (التكنولوجيا - العلم - السيطرة على العالم) هى نتاج رؤيتها المادية التى تطلبت استبعاد الكثير من العناصر الأخلاقية والإنسانية (العناصر غير المادية)، وذلك لتبسيط الواقع بهدف التحكم فيه (إذ لا يمكن التحكم إلا

فيما هو بسيط)، لا شك أن الإنسان هو الضحية الأولى لهذا التبسيط، فبعد أن تم استبعاد عناصره الأخلاقية والإنسانية الراقية لم يبق منه إلا ماديته، فَسَهُل على البعض نسبتها للطبيعة العمياء.

وقد أثبتنا عبر فصول الكتاب السابقة عجز الطبيعة عن تفسير الوجود والإنسان، ولم يتبق إلا القول بالإله الخالق.

١٦- إلحاد الإله الآخر: أمعن بعضُهم فى العبثية، فقال: ما أدراني أن الله الذى تدعونى إلى عبادته هو الخالق والرازق والشافي و...؟ لم لا يكون الفاعل لهذه الأشياء إله آخر أو آلهة متعددون آخرون؟ قلت (وداخلي سخرية لم أظهرها له): قد يكون طرحك مقبولاً إذا كنا قد التقينا فى الشارع بإله ادعى أنه هو الخالق والرازق والشافي و... وطالبنا أن نعبده دون أن يقدم لنا الدليل، لكن الأمر ليس كذلك!

حقيقة الأمر أننا عايَنَّا أفعال الخلق والرزق والشفاء و...، وأدركنا أن لابد لها من فاعل عظيم منزه، ثم كان أن أُنزلت إلينا الديانات السماوية التى خاطبنا بها مَنْ قال لنا «إننى أنا الله»، ونسب هذه الأفعال لذاته، وطالبنا أن نعبده، ألا ترى أنه لو كان هناك آلهة أخرى هى الخالقة والرازقة والشافية و... لوجب عليها ألا تسكت على هذا الادعاء وأن تبين لمخلوقاتها الحقيقة، بل وأن تصفى حساباتها مع هذا الدَّعي!.

أما قضية تعدد الآلهة، فإن كان لها موضع عند المشركين قديمًا، فقد أثبت العلم بما لا يدع مجالاً للشك أن الخالق واحد، ذلك بعد أن توصلنا إلى أن قوانين الطبيعة واحدة، وأن المادة الخام التى يتشكل منها الوجود واحدة، وأن نمط الخلق واحد من الذَّرة إلى المجرة، هذا بالطبع بالإضافة إلى

الأدلـة الفلسـفية والعقلية التى تسـوقها الكتب السـماوية على التوحيد .

١١- إلحاد الشبهات: يركـز كثيـر مـن الملاحدة الشـبان فى هجومهم على الألوهية والدين على التشـكيك فى مصداقية القرآن الكريم وكتاب المسـيحيين المقدس ، وينكرون نسـبتهما إلى الله تعالى ، ويدور التشـكيك حول عدد من النقاط أهمها :

* تُعتبر نظرية التطور الداروينى أهم الأعمدة التى يستند إليهـا الملاحدة ، فهـى بزعمهم تنفى الاحتيـاج للإله ، كما تثبـت خطأ مفهـوم الخلق الخـاص الذى تطرحه التفاسـير التراثية للقرآن الكريم وسفر التكوين فى التوراة .

* تتحدث العديد من كتب التفسير عن آية السيف التى تنسـخ عشـرات الآيات التى تؤكد حرية العقيدة فى القرآن الكريـم ، بل وتصل إلى حد قتل من لا يؤمن بالإسـلام ، مما يدمغ الإسلام بالإرهاب .

* تجعـل الكتـب السـماوية للقلب دورًا فـى المنظومة الإيمانية والمعرفية والشعورية ، بينما يؤكد العلم أن القلب ليس إلا مضخة للدم .

* تتحدث الكتب السـماوية عن عدد من المفاهيم التى لا يقر بها العلم ، كالسماوات السبع ، وأن الشهب والنيازك رجوم للشـياطين ، وأن الشـمس تختفى من السـماء بانتهاء النهار لتسجد تحت عرش الرحمن و . . .

* تشتمل الكتب السماوية على أحداث لا يمكن تقديم الدليـل على صحتها ، كطوفان نوح وأهـل الكهف ، والتقام الحوت ليونس عليه السلام ، وقوم يأجوج ومأجوج ، والطفل الذى تلده العذراء دون أب ، و . . .

* يدعى الملاحدة أن الكتب السـماوية اقتبسـت بعض الأحـداث السـابقة (كطوفـان نـوح وحـوت يونـس) مـن الأساطير السابقة عليها .

* أباح القرآن الكريم عددًا من السلوكيات التى لا ينبغى أن تتبناهـا ديانـة سـماوية ، كالـرق وملك اليميـن والرجم وقطع يد السـارق ، كما أباح لرسـول الله ﷺ من الزواج ما لم يبحه لأتباعه .

* كانت حياة المصطفى ﷺ مليئة بالحروب والغزوات وأخـذ الغنائم ، وبعد ذلك قام صحابة الرسـول الكريم ﷺ وأتباع دينه بنشر الإسلام بالسيف .

لتفنيـد هذه الدعاوى ، نقـول إن العلم قد صار الآن يتبنى مفهـوم «التطـور البيولوجـى الموجـه» الـذى يتمشـى مع الديـن (٤١) ، كما أثبت العلـم أن للقلب دورا فى المنظومة الإيمانية والمعرفية والشعورية ، وإن كان هذا الأمر فى حاجة إلى المزيد من الدراسـة ، كذلك فإن القصص المشتركة بين الكتـب السـماوية والأسـاطير إنمـا بقيت كأسـاطير عند الشعوب بعد أن نزلت بها كتب سماوية .

أما دعوى استباحة دماء الكفار الذين يخالفون المسلمين فى الرأى فترد عليها الآية ١٩٠ من سورة البقرة ، وتؤكد أن مناصبة العداء إنما تكون لمن يقاتلون المسلمين :

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

(البقرة : ١٩٠)

أما اصطلاح «السـماء» فى الكتب المقدسـة فهو مرادف

(٤١) تفاصيل ذلك فى الفصل الثالث عند حديثنا عن الداروينية.

للـ« الكون » ، فلو استبدلنا لفظ « السماء » بـ« الكون » فى القرآن الكريم لاستقام المعنى تمامًا مع المفاهيم العلمية ، لكن القرآن استخدم اللفظ المعتاد والمشهور بين العامة وأيضًا بين العلماء ، أما السماوات السبع فهو مفهوم غيبى لا ينبغى البحث عن تفسير علمى له .

وهناك عدد من المفاهيم ينبغى النظر إليها باعتبارها مفاهيمًا رمزية ، كسجود الشمس تحت عرش الرحمن بمعنى انقيادها للسنن والقوانين الكونية ، وهناك عدد من المفاهيم التى طرحها القرآن الكريم ولم نتوصل لرمزيتها بعد .

أما وقوع أحداث محلية فى بعض بقاع الأرض ، كأهل الكهف ويأجوج ومأجوج وغيرها ، فأمور لا يُتوقع أن تترك أدلة تاريخية تشير إليها ، بل ينبغى اعتبارها من الأحداث التى تُعرَف بالرواية ، فالقرآن الكريم يرويها لنا كما تروى لأولادك أحداثًا وقعت لأجدادك ، لا أظنهم سيطلبون عليها دليلاً تاريخيًا .

أما باقى الشبهات كانتشار الدين بالسيف وغزوات الرسول والرق وما ملكت اليمين وقطع يد السارق وزوجات الرسول ﷺ ، فقد تكفل العديد من كتب رد الشبهات بطرح الأدلة على كذب بعضها وحكمة الإسلام فى التعامل مع بعضها الآخر .

هذه هى أكثر أنواع وأسباب الإلحاد التى نقابلها بين شبابنا شيوعًا ، وكلها خاضعة للردود والدفوع العقلية ، ولا شك أن الشيطان والنفس الأمارة بالسوء لن يتوقفا عن محاولات التملص من هذا الخطاب العقلانى الصرف بما له من حجية قوية ، كما لن يتوقفا عن طرح أشكالَ وحجج أخرى للتهرب من الإقرار بالألوهية والدين .

القارئ الكريم..

قمنا فى هذا الفصل الأخير من الكتاب بعرض مختصر لمسيرة الإلحاد فى العالم الإسلامى عبر التاريخ ، ولعلك لاحظت - كما ذكرنا - أن دور المفاهيم والحجج العلمية فيه قليل ، خلافًا لما نرصده فى الإلحاد الغربى ، وعِوَضًا عن ذلك تشيع فيه عوامل نفسية عديدة تصب معظمها فى الرغبة فى التملص مما تفرضه الديانات من التزام أخلاقى ، لذلك أحسبنى كنت مصيبًا حين أطلقت عليه اسم « الإلحاد السفسطائي » .

***

الخاتمة

لا شك أن قضية الإيمان قضية مركبة، ويمكن تحليلها إلى ثلاثة مستويات، إذا تحقق السابق فإن اللاحق يطرح نفسه تلقائيًا، وبذلك تكتمل منظومة الإيمان:

أولاً: هل هناك إله؟

ثانيًا: هل تواصَل الإله مع مخلوقه الإنسان عن طريق رسالات سماوية؟

ثالثًا: أى الرسالات السماوية أولى بالاتباع؟

أولاً: هل هناك إله؟

عرضنا فى الفصول السابقة البراهين والأدلة العلمية والعقلية والفلسفية على أن «هناك إله»، وتُرَكز الأدلة العلمية على نقطتين؛ علوم البدايات وتعقيد الظواهر، فنشأة الكون من عدم، وظهور الحياة فى المادة غير الحية، وبزوغ العقل الإنسانى، أمور لا يمكن أن نفسر بداياتها عن طريق الطبيعة العمياء، ولابد لها من موجد حى ذكي، خالق بارئ مصور، كذلك فإن ما عليه منظومة الكون وظاهرة الحياة والعقل الإنسانى من تعقيد هائل لا يمكن تفسير بقائها وممارستها لأنشطتها بقوانين الطبيعة فقط، ولابد لها من الإله القيوم القادر سبحانه وتعالى.

معضلة الشر والألم: وربما كانت «معضلة الشر والألم» هى أهم الحجج العقلية والفلسفية التى يطرحها الملاحدة لتدعيم إنكارهم لوجود الإله، ومنها تنطلق العديد من الحجج التى عرضناها فى فصول الكتاب، ولمحورية هذه المعضلة فى الفكر الإلحادى فضلنا أن نؤصل طرحها وتفنيدها فى هذه الخاتمة.

تقوم معضلة الشر والألم على تساؤل يتحدى به الملحدون المؤمنين: كيف يكون الإله رحمن رحيما (الله محبة فى العقيدة المسيحية) ومع ذلك يسمح بكل ما يصيب البشر من آلام وشرور، ويُصعِّد الملاحدة التحدى مدعين أن زيارة واحدة لمستشفيات علاج سرطان الأطفال كفيلة بأن تدفع الإنسان إلى حظيرة الإلحاد.

ولدحض هذه الحجة نقول: تتوقف نظرتنا إلى الشرور والآلام على نظرتنا إلى حقيقة الحياة الدنيا والغرض من الوجود الإنسانى فيها، والتى تختلف لدى المتدينين عنها لدى الماديين (ناهيك عن الملاحدة)، ويرجع عجز المتدينين عن تقديم تفسير مقنع لمعضلة الشر والألم إلى محاولة القيام بذلك فى إطار منظور الماديين، ولا شك أن ذلك الأسلوب يخالف بديهيات المنهج العلمى الذى يحتم أن تتعامل مع معضلة ما من خلال نظرتك للقضية العامة وليس من خلال نظرة المعارضين.

يعتبر المنظور المادى أن الحياة الدنيا ليس وراءها غرض، ولا تحكمها غاية، وأن الإنسان إذا مات صار عدمًا، إذ ليس هناك بعث تتبعه حياة أخرى، ومن ثم للإنسان (بل عليه) أن يُحصِّل أقصى ما يستطيع من متع، وبالتالى يصبح ما قد يشعر به من ألم وكل ما يحجبه عن هذه المتع شر لا جدال فيه.

وانطلاقا من هذا المنظور، يصبح ما يتعرض له الإنسان من شرور وآلام أمورًا عشوائية تمر به خلال حياته فى دنيا نشأت بأسلوب عشوائى أيضا، ومن ثم يصبح القول بوجود إله كله رحمة ومحبة ينظم هذه الحياة هراء وعبثا.

أما المنظور الإسلامى، فيعتبر أن الحياة الدنيا بداية لرحلة

أبدية، يستأنفها الإنسان بعد الموت بالبعث والحساب والجزاء، ويعتبر الإسلام أن لوجودنا من هذه الحياة غرض وغاية، وهى معرفة الله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(الذاريات: ٥٦)،

والعبادة هنا بمعنى المعرفة، أى أن معرفة الله هى الغاية من وجودنا الدنيوى، وتتحقق هذه المعرفة من خلال إدراك ما لله من أسماء حسنى وصفات عُلا تنقسم إلى مجموعتين أساسيتين: جمال وجلال؛ فأسماء الجمال منها الرحمن الرحيم، والغفار، والوهاب، والرزاق، والبر، والرءوف، و... وأسماء الجلال منها العزيز، والجبار، والقهار، والقابض، والخافض، والمذل، والمنتقم، والمانع، والضار، والمميت، و... ويتفرع من معرفة الله تعالى عبادتُه بالمعنى المباشر للعبادة، من القيام بطقوس العبادات، والتزام بالأوامر واجتناب للنواهى وكذلك تعمير الأرض.

وبناء على ذلك تصبح الحياة الدنيا بمثابة «لجنة اختبار» لمعرفة مدى ما حققه العبد من إدراك لأسماء الله تعالى وصفاته، بجمالها وجلالها، وبمدى طاعته لربه فى القيام بالعبادات والالتزام بالأوامر واجتناب النواهى وإقامة الحضارات، وتبعًا لنتيجة هذا الاختبار يكون مآل الإنسان فى حياته الأخرى، إما إلى نعيم فى الجنة أو عذاب فى السعير.

فى ضوء هذه النظرة للحياة، يتناغم ما يتعرض له الإنسان من شر وألم مع المنظور الديني!. فما يقع فى الأرض من كوارث يتضرر منها البشر، كالبراكين والزلازل والفيضانات، إنما هى تجليات لأسماء وصفات «الجلال الإلهي»، وهى تصبح فى نفس الوقت بمثابة ابتلاء وامتحان، للإنسان يُجازى عليه بالإحسان إن صبر وبالعذاب إن ضجر، وبذلك يتعرف الإنسان على جلال ربه من خلال هذه البلايا، كما يتعرف على جماله من خلال العطايا، وفى ذلك قالوا إن من لم يعرف إلا صفات الجمال الإلهى لم يعرف الله عز وجل.

سؤال يطرح نفسه هنا؛ وما ذنب هؤلاء الذين وقع عليهم الابتلاء بالكوارث أو الأمراض أو... أو...؟ يجيب المنظور الإسلامى على هذا التساؤل ببساطة؛ فالحياة الدنيا ليست إلا لحظة إذا قورنت بالحياة الأخرى الأبدية، ومن ثم يهون كل ما عاناه الإنسان فى الدنيا بغمسة واحدة فى نعيم الجنة، كما بَشَّر بذلك رسول الله ﷺ، وكلما زادت المعاناة فى الدنيا زاد النعيم فى الآخرة، حتى يتمنى المؤمن لو كانت حياته الدنيا كلها شقاء.

ونختم حديثنا عن «معضلة الشر والألم» بأنها كانت السبب وراء إلحاد كثير من الفلاسفة الماديين، ومنهم الفيلسوف العظيم سير «أنتونى فلو» الذى كان زعيمًا للملاحدة خلال النصف الثانى من القرن العشرين، وعندما عاد فلو إلى دائرة الإيمان أعلن أن وجود الشرور والألم فى حياة البشر لا ينفى الوجود الإلهى، لكن يدفعنا لإعادة النظر بخصوص الصفات الإلهية، وأضاف الفيلسوف الكبير أنه مهما تعددت أطروحتنا لتفسير هذه المعضلة فسيظل التفسير الدينى هو الأكثر قبولاً والأكثر انسجامًا مع طبيعة الحياة.

ثانيًا: هل تواصل الإله مع الإنسان؟

يبدأ الله تعالى منظومة تواصله مع الإنسان فى القرآن

الكريم بأن ينفى أن يكون قد خلقه لغير حكمة، فيقول تعالى:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾

(المؤمنون: ١١٥).

ثم ينفى الله تعالى أن تكون الغاية من الخلق مجرد اللهو (حاشاه) قائلاً:

﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

(الأنبياء: ١٧).

ويُتبع الله تعالى هذا النفى بإثبات الغاية من خلق الإنسان وهى عبادة الله:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(الذاريات: ٥٦)،

والعبادة هنا بالمعنى الشامل الذى ذكرناه عند حديثنا عن المنظور الإسلامى للغاية من الحياة.

ونُتبع التأكيد القرآنى لتواصل الإله مع الإنسان بعدد من الأدلة العقلية:

١ - دليل القياس: إذا بنى إنسان منزلاً ثم هجره، لا هو أقام فيه ولا أجَّره ولا احتفظ به لأولاده، عددناه أبلهًا غبيًا، فالإنسان السوى لا يفعل شيئًا إلا لسبب أو غاية، فما أدراك بالإله الحكيم؟ أليس من البديهى أن يخلق الإلهُ الإنسانَ لسبب أو غاية؟ وإذا كان الأمر كذلك، ألا يكون من الظلم ألا نُوَجَّه إلى هذه الغاية عن طريق الرسالات السماوية.

٢ - دليل الفطرة: جعل الله تعالى فى نفس الإنسان شوقًا فطريًا لمعرفة مصدره والتواصل مع هذا المصدر، وكذلك معرفة الغاية من وجوده وأيضا مآله بعد الموت، وقد بزغت هذه التساؤلات فى العقل الإنسانى منذ وعى بنفسه، وللإجابة عليها وضع الإنسان الأساطير، ثم أسس الفلسفة التى تقوم على هذه الأسئلة الوجودية المحورية، كذلك زوّد الله تعالى العقل البشرى بقدرات تمكنه من طرح هذه الأسئلة والبحث عن الأجوبة عليها.

أليس من المستنكر أن يدع الإله الذى شكل الإنسان على هذه الهيئة مخلوقة دون عون وإرشاد وهداية؟

٣ - الدليل الأخلاقى: يطرح الفيلسوف الألمانى الكبير «إيمانويل كانت» ما يُعرف «بالدليل الأخلاقي» للاستدلال على تواصل السماء بالأرض، ويشرحه قائلاً: «إن ظمأنا للماء هو دليلنا على وجود الماء»، ويعنى ذلك أن الطفل يظمأ للماء قبل أن يعرف بوجوده، حتى أن هذا الظمأ هو أكبر دليل على وجود الماء، ويقيس «كانت» على هذه الحقيقة قائلاً: «كذلك شوقنا للعدل هو الدليل على وجود العادل»، فالإنسان الذى يشاهد ما فى الوجود من ظلم لا يستسيغ أن تنتهى الحياة على الأرض وينجو الظالم بظلمه دون قصاص، لذلك يرتاح الإنسان كثيرًا لفكرة البعث والقصاص فى حياة أخرى.

ولا شك أن الإنسان الذى هذا مآله لا ينبغى أن يُترك دون توجيه وإرشاد، وترغيب وترهيب، وهذا دور الرسالات السماوية.

٤ - دليل الكتب السماوية: إذا ثبتت صحة أحد الكتب السماوية التى يؤمن المتدينون بألوهية مصدرها، فلا شك

أن ذلك «دليل مباشر» لا يُرَد على تواصل الإله مع الإنسان، لذلك حرص الله تعالى على أن يقدم الأدلة على صدق أنبيائه وكتبه، بالأسلوب الذى يناسب كل زمان وكل قوم.

وقد ذكرنا فى الفصول السابقة أن الملاحدة قد يقبلون وجود الإله لكنهم يتهربون بشدة من الإقرار بتواصله مع البشر عن طريق الديانات السماوية، لما فى ذلك من أوامر ونواه تتعارض مع رغبته فى أن يحيا حياة لا أخلاقية، لذلك كانت هذه الأدلة الأربعة على وجود التواصل شديدة الأهمية عند مناظرة الملاحدة.

ثالثًا: أى الرسالات السماوية أولى بالاتباع؟

بعد أن أثبتنا بالبراهين والأدلة أن الوجود الإلهى حق، كما أثبتنا بديهية الإيمان برسالات سماوية يتواصل بها الله تعالى مع الإنسان، يأتى الدور على سؤال مهم، كثيرًا ما يطرحه الملاحدة الشباب: إذا قلتُ بالإله وبالدين، فأى الديانات أختار؟ وكيف؟

وقد سُئل المفكر الإسلامى الكبير د. عبد الوهاب المسيرى عندما عاد من الإلحاد إلى دائرة الإيمان، لماذا الإسلام؟ فأجاب:

«فى البداية، ينبغى أن ندرك أن الرسالات السماوية كلها دين واحد وهو «الإسلام»، الذى هو التسليم لله الواحد الأحد، لذلك سَمَّانَا أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم «المسلمون».

وهذا المفهوم بديهى، فالعقيدة واحدة، ومن ثم لا يمكن أن يتواصل الله تعالى مع البشر بديانات تحمل مفاهيم مختلفة.

أما ما نرصده من اختلاف بين عقائد ما صار يُعتبر ديانات

مختلفة، فيرجع إلى تأثرها بالفلسفات والمفاهيم المعرفية السائدة من حضارة لأخرى.

وتنقسم العقائد الدينية (سوى الإسلام) فى العالم إلى مجموعتين كبيرتين: الأولى هى عقائد الشرق الأقصى كالهندوسية والبوذية وغيرهما، وتشمل المجموعة الثانية المسيحية واليهودية، وهى منتشرة فى الغرب وبشكل أقل كثيرًا فى الشرق الأوسط.

وإذا نظرنا إلى عقائد الشرق الأقصى، وجدنا أن القاسم المشترك الأعظم بينها هو القول بـ«وحدة الوجود»، التى تعنى أن الإله قد خلق الوجود من ذاته، وأن الإنسان بعد الانتهاء من حياته الدنيا يعود ليمتزج مع أصله (وهو الإله)، ذلك كما تعود قطرة ماء المطر إلى البحر المحيط، ومهما فلسف معتنقوا مفهوم وحدة الوجود عقيدتهم، فإنها تعنى ببساطة أن الإنسان هو الله، أو على الأقل جزء منه.

وأضاف د. المسيرى: وبالنسبة لى فإننى أؤمن أن ثنائية الخالق والمخلوق، والرب والعبد، ثنائية أساسية فى علاقة الإله بالإنسان، أما أن يوهمنى البعض أننى إله (أو جزء منه) (وأنا مش واخد بالى) فهذا ما لا أقبله فى حق الإله أو فى حقى.

أما بخصوص المسيحية واليهودية فيقول د. المسيرى: تقوم هاتان الرسالتان فى المقام الأول على معجزات وقعت منذ أكثر من ألفى عام، كالميلاد المُعجز للمسيح عليه السلام وإحيائه الموتى وشفائه للمرضى، ومعجزة عصا موسى وشق البحر، والمعجزة لا تكون دليلاً إلا لمن يعاينها.

ويضيف د. المسيرى: كذلك فالمسيحية واليهودية

تشتملان على قدر من وحدة الوجود كالتى يقول بها الهندوس، فالمسيح عليه السلام أقنوم (صورة) من أقانيم الله تعالى. كذلك نجد فى اليهودية أن الإله قد حل فى الشعب المقدس (وهو اليهود) وفى الأرض المقدسة (وهى أرض الميعاد).

أما الإسلام، فليس للمعجزات دور فيه، فالسيرة النبوية لا تحمل لنا اسم أى صحابى اعتنق الإسلام بعد أن عاين أكثر معجزتين توثيقًا (الإسراء وشق القمر) إذ وثقهما القرآن الكريم. أما براهين وأدلة الألوهية والرسالة فى الإسلام فتقوم على العقل وتنبيه الفطرة، لذلك انتفت الحاجة إلى رسالات لاحقة وأصبح الإسلام هو خاتم الرسالات السماوية، كذلك فإن ثنائية الخالق والمخلوق، والرب والعبد شديدة الوضوح فى القرآن الكريم، حتى إن الله تعالى قد أثنى على رسوله الكريم ﷺ بمقام العبودية فى كتابه الكريم.

بعد العنصرين السابقين (وضوح ثنائية الرب والعبد، محدودية دور المعجزات) يطرح د. عبدالوهاب المسيرى عنصرًا ثالثًا كان وراء اتجاهه للإسلام، وهذا العنصر خاص بكتاب الإسلام المقدس، وهو القرآن الكريم، فالقرآن الكريم هو كلام الله قطعًا، ولا يمتزج بكلام الرُسُل والأتباع والشُراح كما فى ديانات أخرى، كذلك فإننا نعرف يقينًا متى نزلت كل آية من آياته، ولِمَ نزلت، وعلاقتها بما قبلها وبما بعدها، وهذه الدقة فى التوثيق لا تجدها فى أى كتاب سماوى آخر.

وقبل أن ينتقل نبى الإسلام (الذى تلقى الوحى) إلى الرفيق الأعلى كانت كل آيات القرآن الكريم مدونة فى أكثر من موضع، بالإضافة إلى حفظها فى ذاكرة عشرات بل مئات

من الصحابة، وقبل انقضاء عامين من وفاة المصطفى ﷺ (فى خلافة أبى بكر الصديق) كان القرآن مجموعًا ومدونًا فى مصدر واحد على الهيئة التى بين أيدينا اليوم.

ونستطيع أن ندرك قيمة وأهمية هذا التوثيق وحجيته إذا علمنا أننا لا نعرف شيئًا عن كتاب الهندوسية المقدس (المعروف بالفيدا): بنيته - مصدره - تدوينه - توقيته، كذلك فإن كتابات المؤرخين اليهود والمسيحيين تطرح بوضوح العديد من جوانب الغموض فى بنية وتدوين التوراة والإنجيل.

لعل طرح د. المسيرى العقلى، بالإضافة إلى قطعية ما فى القرآن الكريم من براهين عقلية وفلسفية وعلمية على ألوهية مصدره، يعين الشباب الملحد كثيرًا فى الاختيار بين الديانات.

وبذلك تكتمل ثلاثية: الألوهية - التواصل - الرسالة.

دروس مستفادة للتعامل مع الملاحدة:

تعرضنا خلال رحلتنا مع الإلحاد للفكر الإلحادى الغربى المادى، كما طرحنا المنطلقات والمفاهيم الإلحادية التى تعثّر فيها شبابنا المعاصر، كذلك كانت وقفاتنا مع فكر ابن الراوندى ثم إسماعيل أدهم ثم عبد الله القصيمى رحلات عبر الجغرافيا والتاريخ، امتدت من العراق فى القرن التاسع الميلادى، إلى مصر فى مدخل القرن العشرين، إلى السعودية فى ختام هذا القرن، فكانت جولة مع فكر أشهر ثلاثة ملاحدة فى العالم الإسلامى، ولا ينبغى أن نختم عرضنا للفكر الإلحادى دون الخروج بدروس تفيدنا فى التعامل مع المد الإلحادى الحالى:

١- للتنشئة والتربية والتعليم دور كبير فى التوجه

الإلحادى، تَمَثَّل فى نشـأة إسـماعيل أدهـم المضطربة بين تعصب وقسوة دينية مارسها والده وزوج عمته وبين تساهل دينى وسـخرية تأثر بهما من أختيه، وأكمل المهمة التعليم الإلحادى الذى تلقاه فى الاتحاد السوفيتى.

٢- للبنية النفسـية للإنسـان دور كبيـر أيضًا فى توجهه الإلحـادى، فالشـخصيات الثـلاث التـى درسـناها لم تكن شخصيات سـوية نفسـيًا، فهذا إسـماعيل أدهم ينتحر فى شـرخ شـبابه لأنه لم يجد طمأنينة فى الحيـاة التى لا معنى لهـا، وهذا ابـن الراوندى المتطرف فى انتهازيته وتسـلقه، وأخيرًا شخصية القصيمى التى ينضح من جوانبها الكِبر.

٣- البحث عن الشـهرة والتميز بمنطق «خالف تعرف» عامـل مشـترك - بدرجات مختلفة - فى الشـخصيات التى درسناها.

٤- يقـوم الإلحاد علـى خطأين كبيريـن، علينا أن نبذل جهدًا هائـلًا لمحوهما من عقول ونفـوس الملاحدة، وهما أن الإيمـان الدينى فى كل حالاته أعمى، وأن العلم ليس فيه ذرة إيمان، وإذا تشـكك الملحد فى ذلك، فذلك يرجع إلى «إيمانه» بقدراته العقلية!

٥- رأينـا كيف كان الفكر الماركسـى والثـورة العلمية بمكتشـفاتها وراء إلحاد د. إسـماعيل أدهـم، لذلك ينبغى علـى الدعاة الإلمام بالخطوط العريضة للفلسـفات المادية وكيفية دحضها، وكذلك الإلمام بالمفاهيم العلمية وكيفية اسـتنباط الأدلـة علـى الألوهيـة منهـا، وتُعتبر هـذه النقلة الفكريـة المرجوة من أهم جوانب تجديـد الخطاب الدينى التى ندعو إليها.

٦- ينبغـى التعامل مع الشـكوك التى تعتمـل فى نفوس

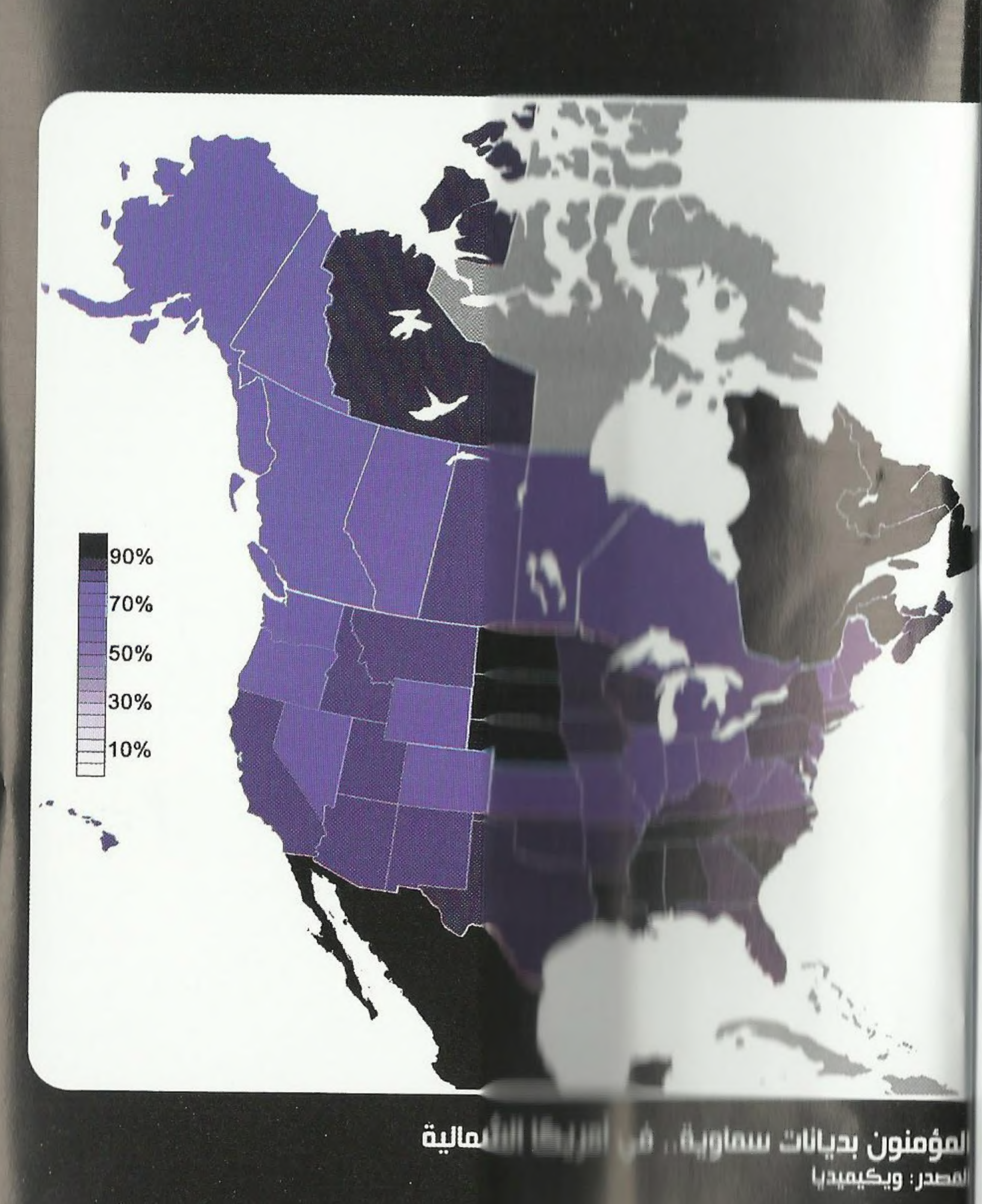
البعـض بالرفق واللـين والحوار، وليس بالزجـر والتأنيب، وهى من العوامل التى دفعت القصيمى للإلحاد.

٧- ينبغـى أن تمتـد حريـة الحـوار إلى المجتمـع كله، فـالآراء الصحيحـة الصريحة الحرة هى القـادرة على دحض حجـج الإلحاد، وهذا هو المنهج الذى وجهنا إليه الله تعالى فى القرآن الكريم:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١).

إذًا فالفكـر لا يُقـاوم إلا بالفكر»، هـذا هو الدرس الأكبر من كتابنا...

***



المؤمنون بديانات سماوية.. في أمريكا الشمالية
المصدر: ويكيميديا

الفهـــرس



MAGAZINE

هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر المحرم ١٤٣٥ هـ

www.AlazharMag.com